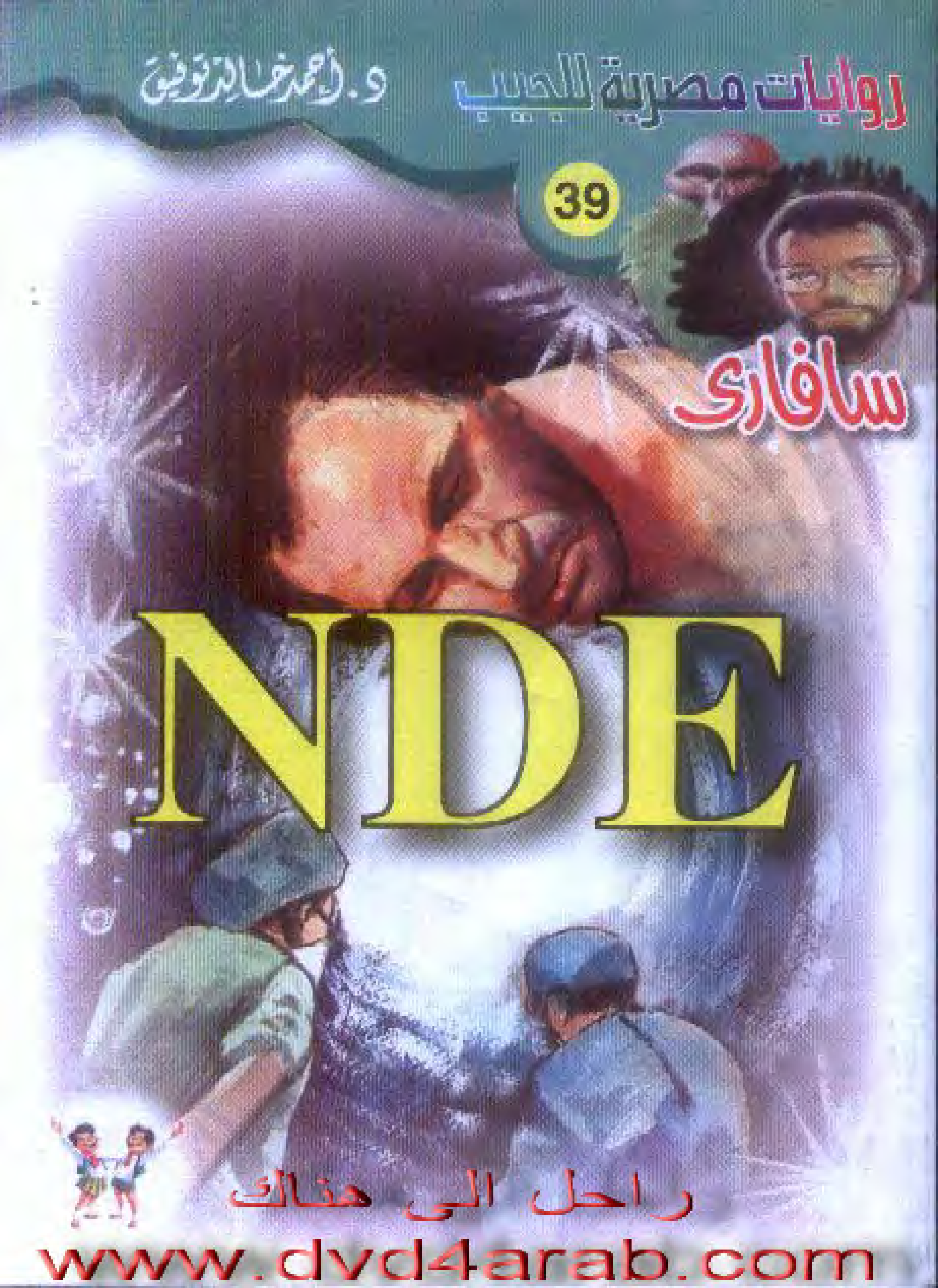


روايات مصرية للجيب
د. أحمد خالد توفيق
39
سافاري
NDE
راحل الى هناك
www.dvd4arab.com

الخاتمة

الإعياء ..

الإعياء ..

أنت تهبط لأسفل .. الأرض تذوب من تحت قدميك كأنها تُثقب ..

شعرت بهذا في سن التاسعة عندما انقض عليك أخوك وابن عمك وصديق ثالث ، وكانوا يمزحون .. راحوا يدغدغونك بلا توقُف .. أنت تضحك وتقاوم وتصرخ .. سقطت على الأرض، فالتفوا من حولك .. تشعر بيد أخيك تدغدغ هنا ويد ابن عمك تدغدغ هناك .. أنت عاجز عن التنفس .. أنت غير قادر على التقاط أنفاسك .. غير قادر على الكلام .. تريد أن تطالبهم بالتوقُف لكنهم لا يصدقون .. يتمادون ..

الذعر يستبد بك .. بقعة الظلام تتكون أمام عينك .. كالحبر فوق النشاف .. تنمو .. تتسع .. تتمدد ..

توقفوا أرجوكم ! توقفوا ! أريد أن أتنف .. أن أتنفس !

هنا بدأت تدرك أن الأرض تذوب من تحت قدميك وأنت تغوص بلا توقف .. فيما بعد قالوا إنك سقطت كالبالون المثقوب بين أيديهم .. احتاجوا إلى وقت طويل حتى توقفوا وأدركوا أنك فاقد

الوعى .. أنك شاحب وأن شفتيك بلون الورق وأن العرق البارد يغمرك .. لابد أن قلوبهم توقفت بدورها من الهلع .. يقول أخوك إن عشر سنوات قد اختصرت من عمره فى تلك اللحظات حتى فتحت عينك وتكلمت ..

الآن أنت تهبط لأسفل ..

لكنك لا تشعر بالذعر ذاته ..

* * *

أخوك نفسه هنا .. يضحك لك ضحكة الفاهم لما يجرى ..

يقول لك وهو يرفع إبهامه :

- « هلم .. سترى أنها تجربة رائعة ! »

مدرس اللغة الفرنسية زميل أبيك .. أستاذ (سراج) الذى كان يصر على أن تسميه (مسيو سراج) ، وكنت أنت تخجل من هذا لأنه يشعرك بالتحذلق .. إنه يقف هناك .. يحمل الكتاب تحت إبطه والعصا الفاخرة التى كان يفخر بها ، والتى لفها بالشريط اللاصق .. يقول لك فى عصبية :

- « Plus vite .. Plus vite .. »

ويلوح بالعصا فتركض ..

ها هى ذى (مها) .. تستند على حافة النافذة عبر الشارع الضيق ، وتنظر لك متظاهرة بأنها لا تفعل .. النافذة مفتوحة وأنت تتظاهر بأنك منهمك فى حمل الأثقال فلا تراها .. الأثقال التى هى كالعادة عصا خشبية بها ثقلان من الأسمنت .. عندما ترفع الثقل سوف تشمخ عضلة ذراعك ذات الرأسين ، وترتسم عليها الأوردة واضحة ، وعندها ربما تروق لها ..

وربما لا ..

ترفع صوت المذياع أكثر ليحمل لها صوت (عبد الحليم حافظ) الربيعى وهو يقول : « بحياتك يا ولدى امرأة عيناها سبحان المعبود .. فمها مرسوم كالعنقود .. »

كيف يكون هناك فم كالعنقود ؟ لابد أن حبيبة (نزار قبانى) هذه مرعبة أو تعانى من داء الشفة المشقوقة .. هذا عيب خلقى يمكن إصلاحه بجراحة ..

تقطب (مها) متذمرة بأنها لاحظت أنك تعاكسها فجأة .. تحمل الكتب تحت إبطها وتنظر لك فى حنق وتغادر غرفتها على الجانب الآخر .. بثياب الخروج وتحمل الكتب .. إذن هى ذاهبة إلى درس الفيزياء .. لا شك فى هذا ..

أنت تهبط لأسفل .. مقدمة قصة أليس فى بلاد العجائب .. عندما أرادت أن تطارد الأرنب فسقطت فى بئر بلا قرار ..

الظلام ..

أين ذهب النور ؟ هناك ظلام فى كل مكان .. أنواع عدة من الظلام .. ظلام حالك .. ظلام دامس .. ظلام مدلهم .. ظلام رمادى .. ظلام ضعيف الشخصية .. ظلام لا يعتبر نفسه ظلامًا .. ظلام يتوهج .. ظلام فوسفورى .. ظلام مظلم .. ظلام بالمايونيز .. ظلام بالصلصة المكسيكية مع شرائح الأسباراجس .. وفر أكثر وخذ الكومبو مباشرة ..

تنظر لأسفل ..

يبدو أن القاع من زجاج مثل قاع مراكب البحر الأحمر .. فقط السمك الملون هنا غريب المنظر نوعًا .. أسماك ملونة آدمية بيضاء اللون تحتشد حول جسد .. الجسد شاخص البصر إلى السماء، وهامد الحركة .. إنه ينظر لك لكنه لا يراك ..

المد يضرب الشط، والرمال الفيروزية تتناثر محاولة أن تذوب لكنها لا تذوب .. الحمقاء لا تعرف أن الرمل لا يذوب فى الماء .. النوارس تحلق صاخبة وتحاول أن تظفر بعينيك .. ربما تظفر برأسك كما حدث لصاحب السجن مع سيدنا (يوسف) ..

طيور النورس أكلت عيوننا .. من قال هذا ؟ (جابرييل جارسيا ماركيز) .. نحن الرجال الجوف .. قالها (أليوت) ..

في القاع الزجاجي ما زالوا يلتفون حول الجسد .. الجسد الذي لا يتحرك .. يتكلمون .. يصخبون .. هناك الكثير من التوتر الذي يبدو لك سخيفاً .. لكنك ترى وجه النائم وتدرك أنه أنت .. أنت بالذات دون سواك ..

لقد فرغ ! لم يعد منه نفع ولم تعد له وظيفة ..

خذوه .. ألقوه في أول حفرة تقابلكم ..

أنت الآن حر ..

فقط لو لم يكن هذا الظلام .. هذا الظلام ..

الآن أنت ترتفع من جديد ..

هناك تيار يحملك لأعلى .. هذا النفق الطويل ..

الطويييييييييييييييييييييييييل !

الظلام في جوانبه ، لكنك ترى النور عند نهايته ..

هذه الفتحة تتسرب منها إضاءة ساطعة .. إضاءة تغشى بصرك في البداية ثم تعتادها فتحبها .. ضوء بهيج مفعم بالأمل ..

يجب أن أبلغه .. يجب ..

هي ذي برنادت تقف إلى جانب النفق .. تهمس لك :

- « لا تلمس الأرض بقدميك وإلا غرست في الرمال للأبد .. ابق قدميك عاليتين .. أنا أحبك .. تذكر هذا ! »

تمتد يد (شينبي) إليك .. يحاول أن يعوق حركتك .. سوف يتفلسف كثيرًا جدًا ويعطلك . لا وقت يا سيدي .. إنني أقترب ..

تنفجر السُّدُم وتنكمش النجوم .. تولد عشرات الثقوب السود .. ومن مكان ما في الكون تولد نجوم جديدة تتثاءب .. إنها تنهض .. ديناصور يخرج رأسه في تثاقل من مياه مستنقع وسط السراخس .. يحاول أن يقتنصك لكنك تراوغه ..

وفي مكان ما تسبح حيوانات الأرتميا الدقيقة مراوغة فينقض عليها الجمبري ليظفر بها ، بينما ينفجر آخر ألغام (دوقر) وتتقدم القوات الغازية .. يجثو الإسكندر أمام تمثال آمون في واحة سيوة .. إنه نصاب يا سادة .. لا تصدقوه .. هو ما زال يؤمن بزيوس لكنه يخدعكم لأنه يعرف أن الدين هو الطريق الوحيد للوصول إلى قلب المصري ..

أنت تقترب من النور ..

من فتحة النفق ..

سوف تعبر ..

شعور بالنشوة يغمرك ، لكنه كذلك توتر لذيذ .. درجة معينة محببة من الخوف ..

لكنك سوف تعبر ..

وسوف ترى ما ينتظرك هناك ..

تعرف مصدر هذا الضوء وسره ..

ربما تذوب فيه للأبد ..

ربما لهذا جئت إلى العالم ..

ربما لهذا أنت موجود .. كى تذوب فيه فلا يصير لك وجود ..

.. Plus vite .. Plus vite

من البطيء إلى السريع . .

لارجيتو ..

أداجيو ..

أندانتى ..

اليجريتو ..

اليجرو ..

برستو ..

* * *

- 1 -

العاشرة مساء ..

هنا فى وحدة (سافارى) تعرف أن موعد النوم قد حان .. هناك صمت .. هناك سكون .. هناك إضاءة خافتة .. حتى الرائحة تتغير ..

إنها العاشرة مساء ..

نهاية يوم طويل من العناء والجرى والعرق والمصطلحات اللاتينية والقىء والملاريا والإيدز ولغات الزولو والخوسا والتال .. نهاية يوم من الولادات المتعسرة والجروح الخطرة والكسور المضاعفة وأورام الثدى والقولون والحميات المجهولة .. نهاية يوم من المشاكل الإدارية والحسابات ..

خلية النحل توشك على أن تخلد للنوم ..

هنا فقط ينهض رجال الأمن النوبتجيون .. وردية المقبرة كما يطلق عليها الأمريكان .. إنهم مجموعة من الأفارقة الذين يلبسون الزى الرسمى الأزرق ويعلقون شعار (سافارى) المميز .. كشاف يتدلى من الحزام وهراوة ..

هذا الذى تراه يمشى فى الممر هو (راماكيل) .. اسم من الزولو فعلاً ، ومعناه (الذى جاءنا مفاجأة) .. إنه ضخم الجثة متشكك نشط جدًا ، ترى فى عينيه نظرة كلب الصيد اليقظ ، مما يخبرك أنه حتمًا مستجد هنا ..

يمشى فى تؤدة فى الطابق السفلى وهو يلقى نظرة عابرة على كل شيء .. على المكتب الفارغ المخصص لموظفة الاستقبال .. على الأنتريه الصغير الأنيق .. على الهواتف المعلقة على الجدار ..

ثم يصل لنهاية الردهة حيث مصعد المرضى .. إنه يراقب الأضواء ثم يضغط على زر الاستدعاء .. يفكر فى الصعود إلى الطابق الثانى حيث زميله (موليهى) .. سوف يجوبان الطابق معًا ثم يعودان إلى غرفة الحراسة حيث يلعبان الورق ويشربان الشاى .. فقط سيقوم كل واحد منهما بجولة كل ساعتين .. هذا هو روتين الحياة ..

المصعد لا يهبط ..

هذا غريب ..

إنه متوقف فى الطابق الثالث على الأرجح ..

كان يعرف هذا جيدًا .. هناك كثيرون من يلصقون ورقة على الخلية الضوئية للمصاعد كى يظل الباب مفتوحًا ، وهذا على سبيل السماجة حتى يبقى المصعد بانتظارهم إلى أن يتموا عملاً ما ..

دق على الباب المعدنى عدة مرات بلا جدوى .. لا أحد يرد ..

لا داعى للصياح ..

ضغط على زر الاستدعاء بلا جدوى ..

شعر بغيظ .. إن هذا الوغد قد عطل المصعد خمس دقائق بلا طائل .. لو كانت هذه حالة طوارئ لمات المريض وتعفن قبل أن ..

فى النهاية قرر أن يصعد الدرج على قدميه ، وابتسم لفكرة أن يجد المتسبب نفسه أمام رجل الأمن المرعب الغاضب .. الناس تعتقد أن بوسعها عمل أى شىء بعد العاشرة مساء .. لكنهم مخطئون ..

يصعد فى الدرج .. الطابق الثانى . هل يمر على (موليهى) ؟ لا .. سوف يستغرق وقتًا إلى أن يجده ..

يصعد إلى الطابق الثالث .. ويتقدم نحو فتحة المصعد ..

هنا وقف متصلبًا ..

باب المصعد يحاول ما استطاع .. ينغلق وينفتح بلا توقف محاولاً أن يلبى النداء ، لكن لا جدوى ..

السبب هو هذا الجسد المنكفئ على وجهه فى فرجة الباب .. الباب يحاول أن ينغلق لكنه يصطدم بالجسد فينفتح من جديد .. هكذا عملية أبدية بلا جدوى ..

دنا من الجسد وهو يهاب أن يلمسه ..

يمكنه أن يدرك من هنا أن هذا رجل أبيض ضخم الجثة ، وعلى الأرجح هو ميت .. هذا التصلب يوحى بأنه لا حياة فيه ..

هكذا تشجع أكثر ومد يديه يجر الجثة خارج فرجة الباب ، وعلى الفور انغلق الباب وهرع المصعد يلبى النداء .. قبل انغلاق الباب لمح شيئًا فى ركن المصعد .. عرفه لكن لم يستطع تبين كنهه ولم يجد الوقت الكافى لذلك على كل حال ..

قلب الجسد على ظهره .. لماذا تصير جثث الموتى ثقيلة إلى هذا الحد ؟ كأن كل شىء فيها يناديها إلى أن تلتحم بقلب الأرض .. كأنها فقدت كل ما يربطها بالسماء ..

لكنه يعرف هذا الوجه ..

إنه طبيب فى الوحدة .. غالبًا هو ألمانى .. وهو الآن ميت كما هو واضح .. كما أنه لا يلبس معطفًا طبيًا .. إنه يلبس الثياب (المدنية) ..

هل توجد جروح ؟ لا .. لكن من الصعب أن يموت إنسان هنا عند مدخل المصعد من دون أن يُقتل ..

من فعل هذا ؟ متى ؟

كان باب المصعد قد انغلق فعاد يضغط على زر الاستدعاء وقد بدأت ساقاه ترتجفان لا شعوريًا ..

من جديد انفتح الباب .. بالفعل هو يرى ما ظن أنه رآه ..

هناك محقن فارغ ملقى على أرضية المصعد ..

هنا كانت أعصاب رجل الأمن القوى الشجاع (بمبيع) المتسللين، قد انفلتت تمامًا .. هو لم ير جثة فى حياته، وقد بدا له الأمر كأنه حلم وهو يقابله هنا فى الليل وحده ..

استند (راماكيل) الذى جاءنا مفاجأة إلى الجدار على بعد خطوات من الميت وراح يبكى كالأطفال .. يبكى .. والأسوأ أنه كلما حاول السيطرة على نفسه بكى أكثر ..

* * *

خلال نصف ساعة كانت القصة شبه مكتملة ..

رجال الشرطة الأفارقة ملئوا المكان وراحوا يلتقطون الصور، جاء مدير الوحدة د. (بالينجا بايلا) ونائبه د. (هانا فان بيردن) .. كلاهما منكوش الشعر منتفخ العينين كأنه بدأ النوم قبل استدعائه بلحظات ..

المتوفى هو د. (كارل شرايدر) طبيب التخدير الألمانى الشاب، إنه فى وحدة سافارى منذ عامين ..

لا أحد يعرف كيف مات ، لكن الفحص الأولى قال إنها نوبة قلبية أو ...

أو جرعة زائدة من المخدر ..

المحقن الفارغ الملقى فى المصعد يحوى بقايا سائل ما .. هناك آثار حقن فى أوردة الساعد .. القصة إذن واضحة أكثر من اللازم .. هناك أمبول مورفين فارغ فى جيبه .. طبيب التخدير الشاب الذى وجد فى حوزته - بحكم عمله - ما يروى ظمأه إلى المخدرات .. وبالطبع يحتاج مدمن المخدرات إلى زيادة الجرعة يومًا بعد يوم .. هذا من صميم تعريف الإدمان .. حتى تأتى اللحظة التى تصير فيها الجرعة التى تشعره بالنشوة هى بالضبط الجرعة القاتلة ..

قال رجل الشرطة الأفريقى (بيهيكيزيسا) لمدير الوحدة :

- « لا يمكن أن نعطى استنتاجات قبل تقرير الطبيب الشرعى ، لكن لا أعتقد أن تقريره سيحوى مفاجآت .. لقد تسلل الطبيب إلى المصعد ليكون فى خلوة ، وحقن نفسه بجرعة زائدة .. شعر بأنه يموت ، وغادر المصعد لكن الأجل لم يمهله وسقط هناك فى فرجة الباب .. »

لم يكن المدير مهتمًا بهذا كله .. فقط كان يشعر بأن الأطباء الذين يموتون فى المصاعد لا يليقون بوحدة يرأسها هو .. هذه فضيحة ..

إدمان مخدرات .. جرعة زائدة ! قصة قذرة بحق ولن تبدأ رائحتها أن تبلغ المركز الرئيس فى النمسا ..

أما نائبته (هانا) فكانت تشعر بدهشة .. الطبيب من الطراز الراقى المهذب ، وهو أقرب إلى شاعر حالم .. ليس من طراز مدمنى المخدرات ..

قال لها المدير :

ـ « الشعراء الحالمون يتعاطون المخدرات أكثر من سواهم .. تذكرى (بودلير) و(إدجار آلان بو) .. هذه هى الشخصيات الإدمانية بحق .. »

ـ « لكن من يموتون فى المصاعد يختلفون عن هذا .. »

ـ « أنا لم أر مدمنين كثيرين يموتون فى المصعد .. ربما كانوا جميعًا من هذا الطراز .. »

كان الجدل العقيم دائرًا بينما المحفة تحمل الضحية مغطاة بالملاءات خارج الوحدة .. لن يجتاز هذا الباب ثانية للأبد .. لن يتعاطى جرعة أخرى للأبد ..

لن يسمع ما يقال عنه ..

* * *

- 2 -

ربما بدأ الأمر كذا ..

كنت أمارس عملى فى وحدة (سافارى) كالمعتاد .. لقد عدت من (كالاهارى) مع (فاسيلى) الروسى وخطيبته (سيموتيتا) الإيطالية ، بعد تلك القصة الرهيبة التى إما أنك قرأتها فلا داعى للكلام عنها ، أو لم تقرأها فلا داعى للكلام عنها كذلك ! أذكر أننا أيام الكلية كنا نتلافى الحديث عن دروس علم الأمراض ووظائف الأعضاء أمام أحد .. فالمستمع إما طبيب وهذا يعنى أنه سيجد الكلام مملاً سخيفًا ، وإما هو ليس طبيبًا ومعنى هذا أن الأمر لايعنيه فى شىء ولن يفهم أكثره ..

كنا بحاجة إلى بعض أيام نعود فيها إلى لياقتنا ، وعامة لم نعد نتكلم عن (مارثا) أو العقارب ..

كنت مشتاقًا إلى (سافارى) الأصلية .. سافارى الكاميرون .. الخبر المبهج هنا هو معرفتى أن انتدابى أوشك على الانتهاء .. سوف أعود فى الأيام القادمة ! هكذا أترك جنوب أفريقيا بما فيها من ذكريات عن أونوابا والزولو والخوى خوى وصحراء كلاهارى .. أحمد الله أننى لم أصب إلا بالملاريا بين الأمراض ، وطعنات على أيدى قطاع طريق شفيت منها بسرعة .. هناك قطرات من دم (أونوابا) تجرى فى دمى .. هناك ندوب فى جدار بطنى ..

أترك النانال أرض (مانديلا) وأكف عن استعمال الطرقعة فى الكلام ..

الآن وأنا على وشك الرحيل تبدو لى هذه الذكريات جميلة ..

لكنى برغم هذا لن أبقى هنا ساعة أخرى .. سوف أعود إلى (أنجاوانديرى) العزيزة ، وأرى برنادت من جديد .. سوف أحكى لهم عن النانال وعن مغامراتى مع قبائل البوشمن ، وعن الخوى خوى .. سوف أضحك كثيرًا عندما أفكر فى كل هؤلاء البؤساء الذين لم يروا ما رأيت ..

أعتقد أننى سأطلب إجازة لزيارة مصر كذلك .. سوف تأخذنى برنادت معها إلى كندا .. هذا عام صاخب إذن ..

المهم أن تمر الأيام القادمة على خير ..

* * *

قالوا لى إنه حفل جميل وإنه لابد أن أكون معهم هناك ..

كانوا مجموعة من أطباء الوحدة .. أنت تعرف (سيمونيتا) و(فاسيلى) و(مكفادين) .. لقد قابلتهم كثيرًا .. هناك طبيب وطبيبة من إنجلترا .. كلهم قال لى فى حماس إن الحفل رائع .

قلت لهم فى تحفظ :

ـ « لست راغبًا في شيء سوى أن أترك وشأنى .. »

قال (مكفادين) :

ـ « لابد من أن تأتى معنا .. يجب أن ترى كيف يمرح الناس هنا .. »

هكذا وافقت .. لابد من أن أوافق فى النهاية ..

الحفل فى ديربان ، لهذا سيكون علينا أن نركب سيارة الطبيب البريطانى (جون كارديف) .. (مكفادين) المكتنز بجواره بينما يتزاحم الباقون فى المقعد الخلفى .. هذا شىء لا يطاق بالنسبة لى خاصة عندما أجد (فاسيلى) فى حضنى وفخذه فوق عنقى ، فهذا يدمر النطاق النفسى الذى يصنعه المرء حول ذاته ، لكن علينا أن نتحمل بعض الوقت .. المسافة ليست طويلة على كل حال برغم وعورة الطريق ..

أخيرًا تحت جنح الظلام تصل السيارة إلى ما يشبه بيتًا ريفيًا من طابق واحد تحيط به مساحة خالية من الأشجار .. نفس منظر البيوت الريفية عندنا فى مصر ، حتى تتوقع أن هذا (دوار) وأن هناك غرفة مسافرين و(قاعة) ، وأن صينية الرقاق والبط ستدخل عليك فى أية لحظة ..

كان البيت مفتوحًا لكنك فى الخارج ترى مجموعة من المشاعل المعلقة لإضفاء جو أفريقى .. النتيجة أنك تشعر بأنك ترى حفل فودوو فى فيلم رعب أمريكى ..

هناك من يقف فى الخارج فى شرفة واسعة تحيط بالبيت، بينما تنبعث من الداخل موسيقا أفريقية صاخبة مطورة تم مزجها بالديسكو ..

تدخل لترى خليطًا غريبًا من الأوروبيين والأفارقة يرقصون فى صخب وجنون .. الأفارقة حرصوا على أن يلبسوا الثياب الوطنية وبعضهم وضع ما يشبه جلد النمر على كتفيه .. هناك عملاق أسود عارى الجذع حليق الرأس مبلل بالعرق يرقص بلا توقف ، ويحمل زجاجة يفرغها فى جوفه طيلة الوقت .. هنك ألف قلادة وألف وشم على صدره ..

هناك من يتواثب .. هناك من أرهقه الرقص فخرج إلى الشرفة ليتلقى لدغات البعوض ..

الآن صرت وحدى لأن كل من كانوا حولى قد انهمكوا فى الرقص..

أقف فى الشرفة .. فتاة هولندية بدينة كأفراس النهر تدنو منى حاملة كأسًا .. تقدمه لى فأهز يدى وأبتسم :

ـ « لا أشرب .. شكرًا .. »

ـ « سأحاول أن آتيك ببعض العصير إذن .. »

لسبب ما اعتبرت أننى ضيفها .. على قدر علمى هى ضيفة مثلى .. البيت يخص طبيبًا أفريقيًا من الوحدة أراد الترفيه عن رفاقه فما دخلها هى فى الموضوع ؟

تعود بكأس تحوى سائلاً أصفر .. أبتسم وقد تذكرت (الحاجة الأصفرة) التى يقدمها (ستيفان روستى) للفتيات فى أفلامنا العربية القديمة .. هذا عصير برتقال على كل حال ..

أشرب جرعة وأشكرها ، فتقول وهى تتأمل وجهى :

ـ « ابتسامتك جميلة .. وجهك صارم فيه حزن غريب ؛ لهذا تضيئه هذه الابتسامة .. »

ثم فكرت قليلاً ، وقالت :

ـ « هل تعرف آل باتشينو فى فيلم (سربيكو) ؟ هذا هو طابع وجهك باللحية .. »

آل باتشينو ؟ إذن أنا وسيم جدًا .. لو عرفت هذا منذ زمن لامتلأت فخرًا ..

هكذا يمر الوقت وهى لا تكف عن الكلام .. لقد اعتبرت أننا ننتمى لنفس العالم ما دمنا زهرتى حائط من الذين لا يشاركون

فی صخب الحفل .. طبعًا أنا لا أجيد الرقص وهی لا تستطيعه .. هذا هو السبب ..

تكفلت بأن جعلت أمسيتی جحيمًا .. أسوأ تعذيب فی العالم هو الشخص المصرُ على الكلام بينما أنت مثقل بالهموم ، ترغب فی أن تبقى صامتًا وأن تصغی لأفكارك ..

لقد ظلت تتكلم ساعة كاملة .. يبدو أنها كانت معجبة بی بحكم الضرورة .. لا يوجد رجال آخرون لا يرقصون ..

كانت سكرتيرة فی شركة ما إن لم أكن مخطئًا .. صديقها تخلى عنها منذ عام .. إلخ .. كلام فارغ لا ينتهی .. وأنا ابتسم ..

كان الحفل يزداد صخبًا .. الخمر لعبت برءوسهم .. زجاجات .. زجاجات .. لا أشك فی وجود مخدرات كذلك .. يزدادون خبالاً .. العملاق الأسود يقف على أريكة ويرقص كالشيطان .. من ست سماعات تتصاعد أغانی الزولو .. البيت يرتج .. هذا نوع من الزار الغربی لإخراج أی كبت ، لو كان عند هؤلاء القوم أی كبت ..

عندما يعمل الغربيون تشعر بأنهم روبوتات جلدة لا تتعب أبدًا ، وعندما يهزلون تشعر بأنهم السفه مجسدًا .. لا يمكن أن تجد شلة أكثر بلاهة وخرقًا من هذه التی ترقص فی الحفل الآن ..

زجاجات .. زجاجات .. كيف يشربون هذا (الهباب) ؟ منذ طفولتى أشعر بأن من يشربون الخمر يشربون خلا .. خلا له ذات المذاق الكريه ، ولهذا ارتبط شكل الخمر عندى بالمرض .. بدواء السعال .. كأن هذا حفل مخصص لشرب أدوية السعال ..

لا أعرف متى ولا كيف انتهى هذا التعذيب ..

خرج الأطباء جميعًا وذراع كل منهم على كتف الآخر وهم يغنون بصوت نشاز جدير بالسكارى .. لا أعرف الأغنية المشتركة بين الروسى والإيطالية والبريطانى والأسكتلندى لكنهم اخترعوها على كل حال ..

قال لى البريطانى وهو يلوح بزجاجة شبه فارغة :

ـ « هيا يا بنى .. لنعد قبل أن تقلق ماما عليك .. »

هكذا ودعت الفتاة فأمسكتَ يدى وبدت دمعة فى عينيها .. إنه الفراق إذن .. مسكينةٌ .. يحزننى كثيرًا نمط البدين العاجز عن الخلاص من بدانته ، والذى يشعر بتوتر عاطفى دائم بسبب هذا العيب الذى لا ذنب له فيه .. دعك من الاحتياج للحب .. كلهم مرهف الحس يحمل طاقة حب وحنان هائلة لا سبيل لتفجيرها .. ستتعب كثيرًا حتى تجد ذلك البدين الراضى عن نفسه متبلد الحس الذى تظهره السينما المصرية لتسخر منه ؛ لهذا ـ ومن دون أى دافع آخر ـ رفعت يدها إلى شفتى ولثمتها .. حقًا هو تصرف أحمق لكنى فعلته ولم أندم ..

هنا تصاعدت صيحات الاستحسان الخبيثة من الأوغاد الذين معى .. العربى الشاب المتوحد قد وجد رفيقه ..

اتجهنا إلى السيارة الواقفة فى الظلام ..

هنا.قذف لى (كارديف) البريطانى بشىء فى الهواء . تلقفته فاكتشفت أنها مفاتيح السيارة !

قلت فى دهشة :

ـ « لماذا ؟ »

قال وهو يفتح الباب الجانبى :

ـ « لأنك ستعيدنا للبيت يا بنى .. لا يمكننا القيادة بهذه الحالة .. »

وقال (فاسيلى) بلسان معوج :

ـ « لماذا أتيت معنا إذن ؟ نحن نعرف أنك لا تذوق الخمر »

هنا فهمت إصرار هؤلاء الأوغاد على اصطحابى للحفل .. كانوا يعرفون أنهم سيكونون ثملين كالصراصير لدى عودتنا ؛ لذا أصروا على أن يكون معهم أحمق يعود بهم لوحدة سافارى بعد إنهاء الحفل .. كنت سائقًا خصوصيًا من دون علمى ..

لكنهم نسوا شيئًا بسيطًا :

ـ « أنا لا أعرف القيادة ! »

نظروا لى فى ذهول .. هذا آخر شىء خطر لهم ببال .. فعلاً أنا لا أجيد القيادة .. أقود السيارات لكن بصعوبة بالغة وأحتاج إلى ساعات طويلة من التمرين قبل أن تجربنى ..

هتفوا فى صوت واحد :

ـ « يا لك من أحمق ! لماذا لم تقل هذا من البداية ؟ »

ـ « لأنكم لم تسألوا من البداية ! لا أحد يجيب عن أسئلة لم تطرح ! »

من دون كلمة أخرى دار (كارديف) حول السيارة ليتخذ مكانه خلف عجلة القيادة ..

قلت محتجًا :

ـ « بحالتك هذه لن تقودها أكثر من مترين قبل أن تسبب حادثًا مروعًا .. »

ـ « أنت لم تترك لنا الخيار .. لن نقضى ليلتنا هنا .. »

تزاحموا جميعًا داخل السيارة فلم أجد موضعًا إلا جوار السائق هذه المرة .. وكنت أشعر بخجل شديد لأننى لا أجيد القيادة .. لقد صار ذلك شيئًا مخجلاً فى هذا الزمن ..

ـ « هلموا يا شباب ! فلنحرق بعض الكاوتشوك ! ييه هى ى ى ى ى ى ى !!

كنت هذه من قائد السيارة الثمل .. وأحدثت السيارة ذلك العواء الصارخ الذى يحطم الأعصاب ، والذى يصنعه الشبان عندنا عندما يرون فتاة حسناء ، وشد فرملة اليد فدارت السيارة حول محورها ثلاث مرات .. ثم انطلقت كالمجنونة لا تلوى على شيء وسط سحب الغبار الكثيفة ..

ـ « فلتهدأ قليلاً يا أحمق ! »

ـ « فلنحرق بعض الكاوتشوك !! »

السيارة تنهب الطرق نهبًا وتطويه طيًا على رأى مدرسى للغة العربية ، والخلفية تركض بسرعة رهيبة إلى درجة أننى لا أرى إلا خطوط السرعة على طريقة القصص المصورة ..

الطريق وعر ، ونحن نطير فى الهواء ثم نرتطم بالأرض ، وردفاى تحولا إلى دقيق مطحون ..

ـ « كارديف ! تمهل بالله عليكم ! »

ـ « فلنحرق بعض الكاوتشوك ! يهى ى ى ى ى ى ى !! »

ومن المقعد الخلفى تصاعدت أغانى السكارى ..

هذا كابوس على الأرجح .. كابوس ولا أراه على أى ضوء آخر ..

★ ★ ★

الضوء الساطع يعمى عيوننا قادمًا نحونا مباشرة ..

صوت البوق يتعالى ..

هذه شاحنة قادمة إلى (ديربان) عبر الطريق الضيق .. هلم يا (كارديف) .. تنح جانبًا واجعلها تمر ..

لكن .....

لك تندفع نحوها رأسًا أيها المعتوه !!

★ ★ ★

- 3 -

كما فى كل الحوادث يصعب جدًا أن تصف ما حدث وما رأيت ..

هناك ذلك الشعور العام بالضياع وعدم الاتزان .. هناك الشعور بأنك بلا وزن .. هناك الشعور بأنك تحلق فى الهواء ..

هناك الشعور بعدم التصديق .. هناك الظلام ..

الدكتورة (صافيناز) أستاذ الطب الشرعى تتكلم فى نقطة ما من الزمكان (الزمكان = الزمان والمكان) .. تنظر لنا نظرتها الحازمة وشعرها الأشيب يتألق فى ضوء النيون بقاعة الدرس .. تقول :

- « أكثر الوفيات والإصابات فى حوادث السيارات تحدث لدى ذلك التعس الذى يجلس جوار السائق .. أكثر الأماكن أمنًا فى السيارة هو الجالس خلف السائق .. »

لا أعرف أين هى ولا متى . فقط أراها تكرر هذا المقطع مرارًا بينما أطير فى الهواء ..

ظلام .. ظلام .. أنواع عدة من الظلام .. ظلام حالك .. ظلام دامس .. ظلام مدلهم .. ظلام رمادى .. ظلام ضعيف الشخصية .. ظلام لا يعتبر نفسه ظلامًا .. ظلام يتوهج .. ظلام فوسفورى ..

ظلام مظلم .. ظلام بالمايونيز .. ظلام بالصلصة المكسيكية مع شرائح الأسباراجس .. وفر أكثر وخذ الكومبو مباشرة ..

لوحة عن الليل هى .. هناك طفل شقى بلل فرشاة باللون الأسود الثقيل ومشى بها على معالم اللوحة ، فصار الظلام دامسًا أكثر .. صار له سُمك ..

صار .. . هه ...

أنت جربت هذا الشعور مرارًا .. لا تذكر كم مرة كدت تموت فيها ..

لكنك فى هذه المرة تشعر بأن هذه الكلمة الأخيرة .. هناك مرة أخيرة دائمًا ..

* * *

منضدة باردة .. كشافات .. كشافات تعمى عينك .. وجوه تنظر لك ..

هذه برنادت .. هذه أمى .. هذا أخى .. هذه جارتى .. هذه نسرين .. هذا شيلبى .. كلهم يقف فى ملل بانتظار انتهاء هذا الهراء ..

مضيعة للوقت .. الاحتضار مضيعة للوقت .. لابد من الانتظار حتى ينتهى هذا كله .. يا للملل !

أرتفع .. أرتفع ..

أنظر إلى أسفل .. كيف أرتفع بينما جسدى ما زال على المنضدة؟ إنهم يتحلقون حوله كالذئاب .. ماذا يفعلون ؟ هل يأكلونه ؟

لا أبالى على كل حال .. هذا الجسد لم يعد يخصنى .. إنه علبة طعام أكلت ما فيها وألقيتها ..

أرتفع أكثر فأكثر ..

ـ « أكثر الوفيات والإصابات فى حوادث السيارات تحدث لدى ذلك التعس الذى يجلس جوار السائق .. أكثر الأماكن أمنًا فى السيارة هو الجالس خلف السائق .. »

هناك نفق طويل مظلم أسبح فيه .. أعرف هذا النفق .. رأيته فى أحلامى من قبل ..

أعتقد أنه عند نهاية هذا النفق سأعرف .. أعرف ماذا؟ لا أعرف ..

فقط أتبين شخصًا ينظر لى من أعلى .. أنا أعرفه .. هذه الهيئة مميزة ..

الرأس البيضاوى .. الصلعة .. النظارة .. الشارب الأسود الرفيع ..

هذا أبى !

أبى هنا ؟ فى جنوب أفريقيا ؟ كيف جاء ومتى ؟ كنت أحسبه قد مات .. أنا دفنته بيدى هاتين .. لكنه هنا أمامى ..

يقول لى بصوته الصارم المميز :

- « يا ولد يا علاء ! »

يا للكارثة ! هذه لهجة اللوم .. أقسم بالله أننى لم أكسر هذه المزهرية .. لم أفتح الثلاجة لآكل آخر قطعة شيكولاته .. لم أقف ساعتين فى النافذة أنتظر أن تمر (مها) ابنة الجيران للحظة ..

لم أفعل شيئًا ، فلماذا اللوم ؟

- « يا ولد يا (علاء) ! »

يقولها من جديد وأنا أسبح كالمنطاد ناظرًا إليه لكننى لم أبلغ مستواه بعد ..

- « عد الآن .. إن وقتك لم يحن بعد ! »

أى وقت ؟ عمَّ تتكلم يا أبى ؟

أستاذ (عبد العظيم البحراوى) .. أبى .. أفضل مدرس لغة فرنسية فى شبرا كلها .. ربما لهذا لم أتعلم الفرنسية قط .. جئت للعالم وأنا أعرفها .. ولهذا وجدت فرصتى فى أفريقيا ..

أنا أرتفع .. لقد صرت فوق مستواه ..

إنه يبتعد لكن النظرة الحازمة ما زالت فى عينيه .. وهو يراقبنى فى شك كأنه يعرف أننى سأؤذى نفسى كالعادة ..

هذا النور الساطع فى نهاية النفق .. يشعرنى براحة بالغة ..

سلام نفسى لا أريد أن ينتهى ..

– « أكثر الوفيات والإصابات فى حوادث السيارات تحدث لدى ذلك التعس الذى يجلس جوار السائق .. أكثر الأماكن أمنًا فى السيارة هو الجالس خلف السائق .. »

صوت أزيز يتعالى لكنه ليس كريهًا .. يدغدغ الأذن حقًا فتطلب المزيد منه .. من أين يأتى ؟

أنا أقترب من هذا النور الساطع ..

بعد لحظات أعبره ..

بعد لحظات لن تكون هناك أسرار ..

سوف أعرف كل شىء ..

Plus vite .. Plus vite ..

من البطيء إلى السريع ..

لارجيتو ..

أداجيو ..

أندانتى ..

اليجريتو ..

اليجرو ..

برستو ..

* * *

لكنى فجأة وجدت نفسى على المنضدة الباردة ..

كانوا يحيطون بى بينما الكشافات تعمى عينى ..

آه ! باردة جدًا .. صلبة جدًا هذه المنضدة ..

أريد التنفس .. لا أريد الزحام يا حمقى !

أرى وجوهًا مقطبة لكنهم جميعًا يلبسون الأبيض .. وأسمع كلامًا بالإنجليزية :

ـ « إنه يعود ! ضعى قناع الأكسجين ! »

شىء بلاستيكى خانق يوضع على أنفى ..

ما هذا ؟ ما كل هذه الخراطيم الخارجة من ذراعى ؟ أين أنا ؟

ـ « أكثر الوفيات والإصابات فى حوادث السيارات تحدث لدى ذلك التعس الذى يجلس جوار السائق .. أكثر الأماكن أمنا فى السيارة هو الجالس خلف السائق .. »

لماذا تضايقوننى ؟ لماذا منعتمونى من رؤية الضوء ؟

كنت سأعرف يا حمقى .. كنت سأعرف ..

حاولت البكاء لكن ذلك القناع منعنى ..

إننى ..

هذه المرة أنزلق للظلام لكن من دون نفق ولا ضوء ..

* * *

- 4 -

نعم يا د. (ماندريك) ..

لقد استعدت لياقتى تقريبًا بعد الحادث ..

أعرف أن المشهد كان مروعًا وأن قلبى توقف لبضع لحظات .. لقد انقلبت السيارة ، لكن أحدًا لم يصب بأى أذى سوى بعض الرضوض .. أتحدث عن هؤلاء السكارى طبعًا ، أما أنا فلم أكن أضع حزام الأمان ، وقد طرت من النافذة وارتطمت بالتراب على بعد عشرة أمتار من السيارة ..

كسور فى الضلوع .. تجمع دموى فى الصدر .. كسور فى الساق .. لكن أهم شىء حدث لى هو أنى نزفت كثيرًا جدًا ، وقد نقلوا لى عدة وحدات من الدم .. منذ جئت إلى جنوب أفريقيا وأنا أنزف وأتلقى دمًا .. لقد صار هذا إيقاع حياتى ..

لقد اتصلوا بوحدة سافارى وسرعان ما جاءت سيارة الإسعاف لتحملنى إلى المستشفى .. على الأقل كان هؤلاء المجانين يعرفون كيف يطلبون رقمًا على الهاتف الخلوى . حسبت الخمر جردتهم من هذه القدرة ..

لا أذكر أى شىء عما كان يجرى لى يا د. (ماندريك) .. قيل إن قلبى توقف فى غرفة الطوارئ ، وإنهم أجروا عملية إفاقة قلبية

رئوية CPR لى ، وحقنوا قلبى بالأدرينالين .. بعد هذا قاموا بإعادة جهازى الدورى إلى حالته ، وقاموا بتثبيت الكسور ..

الحقيقة أننى تحولت إلى دمية هشمها طفل شقى ، واليوم فقط يمكن أن أعتبر نفسى نجوت تمامًا ..

سوف أتخلص من هذين العكازين قريبًا جدًا .. انتزعوا ذلك الأنبوب اللعين من بين ضلوعى ، واليوم رأيت وجهى فى المرآة فعرفت أن الجروح لم تترك ندوبًا واضحة ..

هذا هو مصير من يركب سيارة يقودها بريطانى سكران .. أعرف أن الخمر ضارة جدًا لكن على شاربها ، فما ذنبى أنا الذى لم أذق قطرة واحدة فى حياتى ؟

نعم يا د. (ماندريك)..

فى الحقيقة لا أعرف سبب اهتمامك بقصتى ، ولا سبب تسجيله لكل حرف أقوله ..

أعرف أنك طبيب نفسانى وأن هذا جزء من عملك ، لكن ما قلته لك هو كل شىء .. أنت مهتم بشدة بهذه الرؤى التى رأيتها وقت توقف قلبى ..

ما أستطيع قوله هو إننى عبرت إلى عالم الموت وعدت .. الانطباع العام الذى غمرنى هو الشعور براحة عظيمة .. رأيت الكثير من وجوه أحبائى الأحياء منهم والأموات .. لكن هاجس النور فى نهاية النفق ظل يسيطر علىّ ..

بصراحة أقول إنها كانت تجربة محببة .. لا ألم ولا خوف .. شعور هو أقرب للنشوة ، ولم يبدأ الألم فعلاً إلا عندما عدت لعالم الواقع ورأيت ما حل بجسدى ..

لا يا د. (ماندريك) .. لا أتعاطى أى نوع من المخدرات .. لم أجربها فى حياتى ولا أريد ..

بصراحةً لو تكررت هذه التجربة فأنا راغب فى ذلك .. أرغب فى أن أجرب شعور الطفو هذا من جديد ، وأن أرى نفسى من الخارج .. لكن لا حوادث من فضلك .. صحتى لن تتحمل المزيد من الحوادث فى هذا البلد ..

أنت أمريكى وبالتأكيد تفتقد وطنك هنا كما أفتقد وطنى .. ثمة شىء ما لا يناسبنى فى هذا البلد برغم جماله .. ربما كان أول لقاء لى فى أفريقيا مع الكاميرون لهذا اعتبرتها بيتى بشكل أو بآخر .. على الأقل زوجتى هناك ، وأنا أحب زوجتى بحق ..

نعم .. رأيتها فى ذلك الحلم الغريب ، لكن أهم شخص قابلته هو أبى - ليرحمه الله - الذى توفى منذ عشرة أعوام تقريباً. كان يحتفظ بذلك الطابع الحازم المميز له ، وكان يقول لى إن موعدى لم يحن بعد ..

بصراحة أعتقد أن تجربتى تتعلق بالأرواح .. لا أرى تفسيراً آخر .. روحى غادرت جسدى واستطعت أن أراه على المنضدة والأطباء يحيطون به ، لكن أجلى لم يحن بعد لذا عدت ..

سوف أتأمل هذه التجربة طويلاً وسوف أكتب عنها ..

لكن فيما بعد .. فيما بعد .. مؤقتاً أنا راغب فى أن أستعيد صحتى وأن أمشى من دون عكازين ..

الآن أرجو أن تتركنى فأنا فعلاً مرهق من الكلام راغب فى النوم ..

ربما نواصل الكلام فى الأيام القادمة ..

★ ★ ★

- 5 -

بدأت أستعيد قواى بسرعة ..

كنت أهاب الإصابات بشدة لأن الملل هو أكثر شىء يخيفنى .. تصور أن ترغم (علاء عبد العظيم) كثير الحركة القلق كالذبابة على أن يبقى فى الفراش أيامًا وشهورًا ..

الحمد لله أن الوضع لم يكن بهذا السوء .. كنت أقضى يومى فى الفراش بين مشاهدة التلفزيون والنوم وقراءة كتاب (إسلياتشر) الكابوسى أو قراءة شىء ممل لوالتر سكوت .. كل قصصه التاريخية مملة تناسب من يحتاج إلى زاد لا ينتهى من الصفحات ، أو يريد أن يغفو حيث هو ..

لكنى كنت أخرج كثيرًا جدًا معتمدًا على العكازين ، فأهبط إلى الحديقة الخلفية للوحدة بعيدًا عن زحام المرضى فى الحديقة الأمامية .. هناك المكان خال صامت يذكرك بالمصحات النفسية ..

أمشى على العكازين فى تؤدة وأخيف الفراش الذى يحلق هنا وهناك ، ثم يغلبنى الإرهاق فأجلس أتأمل حوض الأزهار هذا أو ذاك .. أبحث عمن أطلب منه كوبًا من القهوة فلا أجد .. الكل هنا مشغول يركض ويعرق فلا مكان لمريض مدلل .. أنت بخير يا بنى ولن تموت هذه المرة .. إذن لا تعطلنا ..

من حين لآخر يأتى لـى (فاسيلى) وخطيبته ليخبرانى أنهما آسفان وأنهمـا أحمقـان .. أو يـأتى الطبيب البريطـانى المخبول (كارديف) ليعيد لى شرح الحادث ويبرهن على أنه لم يكن يملك الخيار :

ـ « اسمع .. هذه هى سيارتى .. »

ويضع قطعةً من الطوب على الأرض ..

ـ « وهذه هى السيارة الأخرى .. »

ويضع علبة مياه غازية فارغة فى المواجهة على الأرض ..

ـ « هكذا .. هى تدنو منا بسرعة .. نحن على خط واحد .. لا يوجد حل سوى أن أنحرف بالسيارة بأقصى سرعة .. عندما تنحرف وأنت منطلق بسرعة ستين ميلاً فمن الصعب أن تظل السيارة على عجلاتها الأربع .. هنا تنقلب .. من طالعك السيئ أن .. »

أقول له فى نفاد صبر :

ـ « صدقنى .. لم أعد أذكر ولا أهتم .. »

ـ « لا دور للسُكر هنا .. أى شخص كان سيفعل الشيء ذاته .. المخطئ الوحيد هو سائق الشاحنة .. »

ثم ينظر إلى ساعته ويعلن أن وقت الانصراف قد حان ..

ـ « هل تريد أى شىء ؟ »

ـ « أريد أن أبقى وحدى .. »

ولى هذا ..

* * *

كنت أمرُ بتجربة غريبة أريد أن أستكملها وحدى ..

المكان المناسب لاستكمال هذه التجارب هو أن تكون وحدك فى حديقة غنّاء ، بينما الكل مشغول ولا أحد يتابعك .. فقط أنت تسمع الصخب من الجهة الأخرى للوحدة ..

هذا الصخب يلعب دور الخلفية لخواطرك ..

الحلم الغريب الذى مررت به عندما توقف قلبى .. هل هو الموت فعلاً ؟

كانت أمى تقول لى إن المحتضر يرى شريطًا كاملاً يستعرض أعماله طيلة حياته .. لكنى لم أر هذا الشريط .. فقط رأيت النور الساطع .. لو كانت أمى هنا لقالت لى إن هذا النور يدل على أنى إنسان خيِّر فى طريقه إلى الجنة .. لكنى لا أعتقد أن الأمر بهذه السهولة ولا أن الجنة قريبة لهذا الحد منى ..

لكن التجربة هزتنى من دون شك ..

ما زلت أذكر كل التفاصيل ، وبالتأكيد أنا راغب في استعادتها من دون إصابات ..

النفق ..

النور الساطع فى نهايته ..

صوت الأزيز ..

كل هذا بدا حقيقيًا بطريقة لا يمكن وصفها ..

والآن أشعر بأن الحياة تستحق نظرة أخرى .. نحن نركض ونركض فلا نجد لحظة واحدة نجلس فيها وننظر لأنفسنا .. كأن الحياة زميلتك فى العمل .. أنت وهى مشغولان للأبد غارقان فى توترات العمل ومشاجراته .. فجأة تتوقف وترفع رأسك .. تنظر لها .. فجأة تدرك أنها جميلة بحق وأنك تتمنى لو كان هذا السحر لك ..

هناك تفسير لكل هذا لكنى لا أستطيع أن أمسك به ..

ذات الحيرة التى شعرت بها وأنا أشعر بأن وجودنا كله ثقب كبير ..

تضع قدمك على أول درجة من سلم عال شامخ . لكنك عاجز عن استكمال الصعود ..

هنا يظهر د. (ماندريك)..

يظهر بالمعنى الحرفى للكلمة .. أراه قادمًا من نهاية الممر بين أحواض الأزهار وهو يدس يديه فى جيبيه .. برغم ضخامة جسمه المرعبة فهو مهذب هادئ، يلبس (بول أوفر) خاكى اللون له فتحة على شكل رقم (سبعة) تطل منها ياقة قميصه ربطة العنق الكاروهات .. عوينات خفيفة بلا إطار ورأس نصف أصلع .. لحية خفيفة بنية اللون ..

د. (جوزيف ماندريك) الأمريكى جاء إلى الوحدة قبل قدومى بشهرين، وهو طبيب نفسى من (منيسوتا) . لا أسرة له هنا فى جنوب أفريقيا ولا فى الولايات على قدر علمى .. لم تنعقد بيننا صداقة من أى نوع، كما أنه رجل صموت أميل للتحفظ .. ربما مات فلا يعرف أحد ذلك ..

لكن (ماندريك) ظهر فى حياتى بقوة منذ أفقت من ذلك الحادث ..

فى البداية قال إنه يدرس (توتر ما بعد الحوادث) وإنه يريد أن يسمع منى ولا يعلق، ثم بعد فترة اعترف بأنه مهتم بما رأيته وعشته فى اللحظات التى توقف قلبى فيها ..

- « كيف حالك يا دكتور؟ »

- « بخير يا سيدى .. واضح أننى بخير .. »

جلس جوارى على المقعد الخشبى الطويل ، وإن تفادى فضلات الطيور المبعثرة عليه ..

سألنى وهو ينزع عويناته ليجفف العرق عليها :

- « هل ستعود إلى الكاميرون قريبًا ؟ »

- « بمجرد أن أتعافى .. نعم .. »

- « أنت سعيد الحظ .. أنا لم أر غرب أفريقيا قط .. »

- « هذه مزية أن تكون قابلاً للاستغناء عنك .. هم يتخلصون منى فى أى مكان .. مرة فى كينيا ومرة فى الناتال .. ربما أكون فى الكونغو المرة القادمة .. لو كنت مهمًا أساوى ثقلى ذهبًا لبقيت حيث أنا للأبد .. »

ضحك طويلاً ثم فعل الشىء الذى اعتدته كلما قابلته ..

أخرج جهاز التسجيل ووضعه بيننا .. ثم ضغط على الزر الأحمر ..

قلت له فى حرج :

- « أنت لطيف ومهذب ، لكن موضوع تسجيل ما تقول هذا يذكرنى بالمباحث الفيدرالية أو جلسات محاميى الشركات .. بالصراحة لا أشعر براحة وهذا الشىء يراقب أنفاسى .. لاحظ أننى لم أوقع للتطوع فى بحث علمى ما ، ولم أعطك تصريحًا بتسجيل ما أقول .. »

قال فى حرج مماثل :

ـ « آسف .. افترضت أن هذا لن يضايقك .. »

لكنه ترك الجهاز يدور مما أثار غيظى ..

قال لى :

ـ « أنت وصفت كل ما رأيت .. لا أعرف إن كنت تدرك أهمية ما تقول أم لا ، لكنك شئت أو أبيت صرت حالة أخرى من حـالات الـ NDE .. »

بدا لى الاسم مألوفًا فكررته :

ـ « NDE ؟ وما هو ؟ »

ـ « أى Near death experiment .. تجربة الدنو من الموت ! »

* * *

- 6 -

فى الأيام التالية جلست كثيرًا جدًا مع د (ماتدريك) ، وعرفت منه الكثير عن تفاصيل هذه التجربة العجيبة التى مررت بها ..

إنها ليست فريدة على الإطلاق .. كثيرون مروا بها .. ربما الملايين ..

فقط ظهر عالم درس هذه التجارب اسمه (ريمون مودى Raymond Moody) ، قضى من عمره 19 عامًا فى دراسة الظاهرة حتى صار الخبير الدولى الأول فى هذا الموضوع ، وهو يرى أن هذه التجارب قد حلت السؤال الأبدى الذى عذب البشر : ماذا يوجد هناك ؟ (مودى) طبيب نفسى كتب عام 1975 كتابًا مهمًا عن الظاهرة اسمه (الحياة بعد الموت) ، وقد باع هذا الكتاب عشرة ملايين نسخة .. يبدو أنه بالغ فى وصف المباهج التى تنتظر من يموتون ، حتى إنه خشى أن يغرى كتابه المخابيل بالانتحار .. هكذا كتب كتابًا ثانيًا اسمه (أضواء جديدة على الحياة بعد الحياة) تكلم فيه عن الانتحار ، وكيف أن تجربة الدنو من الموت تجعل المرء يتمسك بالحياة أكثر ..

(ريمون مودى) هو الذى اصطك مصطلح NDE ولو كان عالمًا عربيًا لصار اسم التجربة (ت د م) .. هذا المصطلح دخل الثقافة الشعبية الغربية بشكل غير مسبوق ، وصارت هناك مجلات طبية رصينة مختصة بأبحاث الدنو من الموت ..

إن التجربة كما يلى :

فى 12٪ من المرضى الذين يمرون بحالة توقف للقلب ثم عودتهم للحياة ، تكون هناك هذه الذكرى المبهمة عن الخروج من الجسد .. هناك صوت الأزيز .. هناك ذلك الشعور العام بالسرور والسلام .. هناك النفق الطويل المظلم .. دائمًا النفق الذى يوجد الضوء فى آخره .. ضوء ساطع يعمى العيون .. التحليق .. ثم يعود المريض للحياة فيمر بنزعة صوفية .. يشعر بحقيقة العالم الآخر والاقتراب من خالقه ..

هناك لمسة أخرى من تجربة تدعى (الخروج من الجسد) ، وهى التجارب التى يرتفع فيها المريض فى سماء الحجرة ويتمكن من رؤية جسده من الخارج .. يراه وقد التف حوله الأطباء وربما الأقارب الباكون ..

غير أن التجربة ليست بهيجة فى كل الأحوال .. هناك من حكوا عن ظلام وعمليات تعذيب على أيدى شياطين أو أقزام ..

بين من مر بهذه التجارب من المشاهير نجمة هوليوود (إليزابيث تايلور) التى مرت بهذه التجربة عام 1961 عندما توقف قلبها نتيجة التهاب رئوى .. (شيلا) المطربة الفرنسية مرت بهذه التجربة ..

يرى المتدينون أن هذا هو الدليل على وجود جنة ونار .. هؤلاء الذين رأوا النار كانوا مؤمنين ، وهؤلاء الذين عذبهم الأقزام كانوا خطاة ..

تكونت مؤسسة اسمها (أيالدس IANDS) لدراسة ظواهر الدنو من الموت ، وقد أنشأت لها فرعًا في فرنسا تحت رئاسة (لويس توماس) .. وقد وجد الباحثون فيها التالى لدى العائدين من الموت :

- 58 ٪ يشعرون بالسلام النفسى والهدوء.
- 37 ٪ يعيشون تجربة الخروج من الجسد .
- 23 ٪ يدخلون النفق المظلم الشهير .
- 17 ٪ يرون الضوء الباهر .
- 10 ٪ يذوبون فى هذا النور الباهر .

كثير ممن يمرون بالتجربة يلقون أقارب ومعارف لهم ماتوا من قبل .. ثم يشعرون بأنهم يجتازون حدًا ما ، ثم تأتى لحظة العودة لعالم الواقع .. غالبًا ما تكون مصحوبة برفض ونفور ..

يمكن القول إننى مررت بكل شىء ! عندما أذهب إلى مدينة الملاهى لابد أن أجرب الألعاب كلها ولا أقنع بلعبة أو لعبتين !

أقرضني (ماندريك) كتاب (مودي) المسمى (الحياة بعد الموت) كي أقرأه .. وقد أمضيت وقتًا طويلاً معه ؛ لأنني كنت أطالع كل فقرة مرة تلو المرة ..

بالنسبة لي لا توجد مشكلة ، فأنا أعرف ما سيحدث لي بعد الموت يقينًا من الدين .. لو رفضت هذا لكنت كمن يرفض الدين بالضرورة ، لكن الجديد بالنسبة لي هو أن يتمكن المرء من الاقتراب إلى هذا الحد والعودة .. أن تلقى نظرة وأنت تقف على أطراف أصابعك ثم تعود جريًا قبل أن تنغلق البوابة عليك ..

هل هذا ممكن ؟

لو كان ممكنًا لكانت تجربة في غاية الإثارة .. أما لو لم يكن فلا مشكلة .. إن عدم صحة تجربة NDE لا علاقة له بالبرهنة على وجود حياة بعد الموت في رأيي .. سطح الجيران موجود سواء كان بوسعك أن تزحف فوق سطح دارك لتلقى نظرة عليه أم لا .. فشلك في استراق نظرة لا يدل على شيء ..

كان أهم سؤال وجهته لـ (ماندريك) هو :

- « لا شك في أن روح الإنسان واحدة .. فما السبب في أننا معشر العرب لا نسمع الكثير من هذه القصص ؟ ربما نسمع عن

الشخص الذى يرى شريط حياته ، أو يرى أشخاصًا ميتين لكننى مثلاً العربى الوحيد الذى رأى النفق على قدر علمى .. »

ابتسم ، وقال ما معناه :

ـ « من غير زعل ؟ »

ـ « طبعًا .. »

قال :

ـ « السبب هو تقدم الطب فى العالم الغربى .. تقدم وسائل إعادة الحياة للقلوب المتوقفة .. هكذا يعود الناس كثيرون يومًا بعد يوم من على الحافة الرهيبة ، ويحكون ما رأوا .. من لم يعد لم يحك شيئًا ومات بسره .. أعتقد أنكم تفقدون الكثيرين ممن توقفت قلوبهم .. »

بدا لى التفسير منطقيًا .. ليس دقيقًا تمامًا لكنه منطقى ..

* * *

كنت متحمسًا وقد جلست لأكتب خطابًا طويلاً لبرنادت أرسله بالبريد الإلكترونى .. انتقيت عباراتى بدقة حتى لا يصيبها الذعر . أنا مت لكن ليس إلى هذا الحد .. هلكت لكننى لم أهلك جدًا . تمزقت لكن ليس كما تظنين ..

فقط خصصت عدة صفحات أحكى لها فيها تفاصيل هذا الذى رأيته ..

كما توقعت لم تنتظر البريد الإلكترونى وإنما اتصلت بى معربة عن ذعرها وقلقها ..

- « أنت مجنون .. لن تكف عن محاولة قتل نفسك ! »

قلت لها كالأمريكيين :

- « الجنون .. هذا هو اسمى الأوسط .. »

كنت أشعر برضا وسرور لا حد له .. هى قلقة علىّ .. هى تموت ذعرًا .. كم أن هذا جميل !

قالت بعد ما انتهت من السباب الفرنسى الرقيق :

- « لى عمة مرت بتجربة كهذه .. إنها تحدث للكثيرين .. البعض يعتبرها هراء ناجمًا عن نقص الأكسجين الواصل للمخ .. البعض يعتبرها تجربة دينية مثيرة .. »

ثم ودعتنى مع وعد بأن أحافظ على حياتى إلى أن نلتقى ..

- « عدنى أنك لن تموت قبل أن .. قبل أن أموت أنا .. »

الحقيقة أننى لم أف بالوعد تمامًا .. وستعرف السبب حالاً ..

- 7 -

مزاجى يهبط ..

حالتى المعنوية تتدهور..

أعتقد أننى أعانى اكتئابًا شديدًا هذه الأيام ..

لم أعد للعمل بعد وربما كان هذا سببًا مهمًا ، لكنى بالفعل غير راغب فى العمل .. غير راغب فى الاستيقاظ صباحًا .. غير راغب فى العودة للوطن ..

غير راغب فى الحياة ..

فقط أمضى الساعات فى الحديقة الخلفية أتأمل الفراشات وسط الأزهار .. أحاول لن أفهم جدوى ما تقوم به .. منظر رائع سام جدير بأفلام (ديزنى) لكنى لا أرى فيه إلا السخف بعينه .. ثمة شىء من الادعاء هنا .. الحديقة تعتقد أن عليها أن تكون جميلة، وبما أنها تعرف أن الحدائق الجميلة تعج بالأزهار والفراش، فإنها تفتعل ذلك من دون أصالة ..

أتأمل المرضى فى اشمئزاز .. ماذا يريدون ؟ لماذا يعتقدون أن عليهم أن يشفوا ؟ ما أهمية حياتهم ؟ هذه المرأة التى تعيش فيما يشبه الدغل تجرع الفقر والمرض .. لماذا تعتقد أن عليها

ل تشفى من أمراضها ؟ لماذا لا تموت ؟ ماذا تركت لآينشتاين وفيرمى وابن سينا ؟ هؤلاء هم العلماء الذين يستحقون أن يعالجوا ويشفوا ..

هكذا رحت أنحدر من حالة نفسية سيئة إلى أسوأ .. لولا ديني لأقدمت على الانتحار مثلاً ، وهو أغرب تصرف يمكن أن أفكر فيه أنا بالذات ..

كنت غارقًا فى هذه الهموم عندما قابلت د. (ماتدريك) فقلت له إنى راغب فى أن يكتب لى دواء للاكتئاب ..

ضحك كمن يتوقع هذا ، وقال لى :

- « إذن أنت فى الطور إياه ؟ »

- « أى طور ؟ »

- « طور الاكتئاب .. لابد بعد المرور بتجربة NDE من فترة انفعالية وبهجة ، ثم يبدأ الاكتئاب .. »

- « والحل ؟ »

- « سوف أصف لك بعض مضادات الاكتئاب ، لكن أقول لك إن هذا ناتج عن سحر التجربة وغرابتها .. أنت رأيت بصيصًا من هناك .. تريد أن تعود .. »

ـ « لابد من توقف قلبى ثانية ، لهذا تجدنى غير متحمس للعودة .. »

هكذا كتب لى بعض أدوية الاكتئاب من صيدلية الوحدة، وأمر بصرفها ..

وبدأت أتعاطى تلك الأدوية والتصقت بحياتى بشكل لايصدق لكنى بدأت كذلك أعتقد أنها هراء .. نوع من العجين الأبيض المجفف .. هؤلاء الناس يمزحون ولا شك ..

أخبرته بذلك ففكر حيناً ..

ثم عاد لى بعد يومين .. كانت عيناه تلمعان بشكل غريب .. قال لى :

ـ « هل أنت مستعد لمغادرة الوحدة بضع ساعات مساء اليوم ؟ »

نظرت إلى ساقى والعكاز الذى أحمله وهززت رأسى :

ـ « ربما .. نعم .. »

ـ « جميل .. سوف تأتى سيارة لك اليوم فى التاسعة مساء .. »

ـ « والغرض ؟ »

قال فى مكر ، وهو يضع إصبعه أمام شفتيه :

- « نوع من جلسات العلاج الجماعى .. تعال وجرب .. بعدها نتكلم .. »

★ ★ ★

فى التاسعة مساء وقفت مستندًا إلى العكاز على باب وحدة سفارى الرئيس أنتظر .. أرمق الطريق الترابى الذى يقود للوحدة .. لم أر طريقًا ممهدًا أمام أية وحدة (سافارى) عرفتها فى حياتى ويبدو أن هذا جزء من تقاليد المهنة ..

رأيت سيارة (لاند روفر) بيضاء تدنو منى وهى تضىء كشافاتها بشكل متقطع .. دنوت منها وانحنيت على زجاج النافذة الأمامى فرأيت رجلاً أفريقيًا فى الأربعين من عمره يضغط على لفافة تبغ بين أسنانه ، ويسألنى :

- « واضح أنك د. (عبد العظيم) .. »

- « أنا هو .. وأنت من طرف ... »

- « نعم . د. (ماندريك) .. اركب من فضلك "

الجو كله يوحى بالتآمر .. لن أندهش لو كانت كلمة السر هى (هل مر الفيل الأخضر من هنا ؟)

ركبت جواره وأنا أتساءل عن هذا البرنامج الذى يبدأ بتلك الطريقة ..

هذه أول سيارة أركبها منذ وقع الحادث .. أشعر بتهيب ورهبة خاصة مع الليل .. لن أندهش لو تكرر كل شيء بالحرف ..

لكن الرجل كان سائقًا مسالمًا محترفًا ، وقد قدرت أننا ذاهبان إلى (ديربان) .. بالفعل كان الأمر كذلك ، حتى أننا قطعنا ذات الطريق الذى قطعناه فى تلك الليلة المشئومة .. فقط لم يقصد ذلك البيت المكون من طابق واحد ، وإنما قصد بناية من طابقين أمامها حديقة صغيرة مهملة .. ودعانى للترجل ..

وعلى الباب وجدت د. (ماندريك) بجسده العملاق المميز ، وكان بادى المرح ..

قلت له ، وأنا أدوس على العكاز بحرص :

- « اسمع .. لو لم يتضح أنها مهمة تجسس أو حلقة لعبادة الشيطان ، لظننت أننى أحمق ! »

قال ، وهو يساعدنى على اجتياز مدخل البناية :

- « لا تقلق .. هى مهمة مخالفة للقانون فعلاً ، لكنها لا تتعلق بالتجسس ولا عبادة الشيطان .. ربما نبدأ فى شرب دم الأطفال الرضع بعد قليل لكن ليس الليلة .. »

صعدنا بصعوبة عبر درج ضيق إلى شقة فى الطابق الأول ، أول علوى كما نقول عندنا .. ودق الباب مرتين ..

الشقة كانت خالية من الأثاث تقريبًا .. جدران مدهونة حديثًا .. مقاعد متناثرة .. سرير كشف طبى جوار الجدار .. لا يوجد شىء آخر .. مزيج غريب من عيادة طبية وشقة تحت التأثيث ووكر عصابات و(غرزة) لتعاطى المخدرات .. لن أندهش لو ظهر تومرجى يحمل (جركن) بلاستيك ملأه بالماكستون فورت ومحقنًا .. ثمة ستار أخضر سميك يبدو أنه يفصل جزءًا من الشقة عن الجزء الذى تجلس فيه ..

هناك الكثير من أقداح القهوة الفارغة متناثرة على الأرض .. فى كل قدح أو فى طبقة دفنت عشرات الأعقاب من لفائف التبغ .. رائحة الجو تدل على أن هذه الشقة لا تستخدم للعلاج من إدمان السجائر ..

كانت المجموعة الجالسة تتكون من شابة غربية .. ثلاثة رجال غربيين .. شابين من الأفارقة ..

كانوا ينظرون لى دون دهشة أو فضول .. فقط ينظرون ..

قال لهم (ماندريك) :

- « هذا صديقى العربى .. د. (عبد العظيم) .. فليقدم كل منكم نفسه من فضلكم لأننى مرهق .. »

هكذا بدأ كل واحد يقدم نفسه :

- « (مارى ماكلويد) .. صحفية .. »

ـ « (جيروم ستيوارت) .. طبيب .. »

ـ « (كارل شتاينبرج) .. صحفى .. »

ـ « (جيرار شيفالييه) .. مدرس لاهوت ومبشر .. »

ـ « (بيكيسيسا) .. معلم فى مدرسة ابتدائية .. »

ـ « (أكير موتدهارات) .. حارس مصرف .. »

طبعًا تباينت اللهجات وإن كانوا جميعًا استخدموا الإنجليزية .. يمكن القول إن لدينا بريطانيين وفرنسيًا أو بلجيكيًا وألمانيًا وأفريقيًا من الزولو وهنديًا .. الأسمر الأخير لم يكن أفريقيًا إذن ..

ما الرابط بين هؤلاء ؟ مهنة الصحفى تتكرر مرتين ، ومهنة المدرس تتكرر مرتين إذا اعتبرنا أن المبشر مدرس بشكل أو آخر .. الآن صار هناك ثلاثة أطباء .. هل تستنتج من هذا شيئًا ؟

نظر لى (ماندريك) بعينيه اللتين تشعان ذكاء ، وقال :

ـ « أعرف ما تفكر فيه .. لقد أجبنا عن السؤال الأول (من هؤلاء ؟) وبقى السؤال الثانى (ما الرابط بينهم ؟) »

ثم أشار لهم ، وقال بلهجة مسرحية :

ـ « كل هؤلاء عادوا من الموت مثلك ! »

* * *

- 8 -

قال (جيروم ستيوارت) :

- « كنت أرى جسدى من أعلى وقد التف حوله المسعفون .. كنت أرتفع وأرتفع .. لكنى لم أكن مسرورًا أو منتشيًا .. كنت أشعر بأن هناك شيئًا خطأ وأن أوان تصحيحه قد فات .. لن أستطيع العودة لهذا الجسد ثانية .. سوف أرتفع إلى أن أخترق سقف الحجرة ثم أغيب فى عالم غريب مخيف .. »

قالت (مارى ماكلويد) :

- « أنا كذلك كنت خائفة موشكة على البكاء . »

قال (جيرار شيفالييه) بلكنته الفرنسية الشنيعة :

- « بالنسبة لى شعرت بنشوة وتمنيت ألا تنتهى هذه اللحظات »

صب (ماندريك) بعض العصير لنفسه وأشعل لفافة تبغ ، وقال :

- « كثيرون ممن يمرون بالتجربة لا يمرون بتجربة الخروج من الجسد .. هما غالبًا متزامنتان لكنهما لا يعنيان الشىء ذاته .. أحيانًا تكون هذه التجربة ممتعة شبه صوفية ، وأحيانًا ما تكون مخيفة .. »

كنت أنظر للساعة .. إنها الحادية عشرة ليلاً .. سألته :

ـ « ما زلت لا أعرف الكثير عن تجربة الخروج من الجسد هذه .. »

ـ « نسميها اختصارًا بـ OBE .. أى Out of body experiment .. وهى كما قلت لك غير ثابتة فى حالات الدنو من الموت .. لقد مررت بها .. إنها تتضمن الشعور بأنك تطفو فى الهواء .. ترى نفسك من الخارج .. وهى تنتهى بالعودة للجسد ودخوله .. »

تذكرت فيلم رسوم متحركة مجريًا قديمًا كان المتوفى فيه على المحفة .. تصعد روحه للسماء ببطء فيشدها أحد الأطباء من ساقها ليعيدها إلى الجسد .. تكرر هذا عدة مرات فاضطر الطبيب إلى تقييد المريض لمنع روحه من الخروج !..

تذكرت هذا وابتسمت برغمى ..

قال د. (ماندريك) وهو يتساءل فى سره : (لماذا يبتسم هذا المخبول ؟) .

ـ « على كل حال هناك الكثير من الجدل حول ظواهر الخروج من الجسد هذه .. السويسرى (أولاف بلانك Olaf Blanke) حصل على نتائج مشابهة عن طريق تنبيه الفص الجدارى

الصدغى فى المخ .. يمسه بالقطب الكهربائى فيجد المريض نفسه يحلق فى فضاء الغرفة ويرى جسده .. عالم آخر هو (برزنجر Persinger) جرب وضع الأقطاب المغناطيسية على الفص الأيمن لدى المرضى .. وقد ظفر باستجابة مماثلة .. ليس هذا فحسب .. هناك من يجد نفسه يحلق فى الهواء عندما يجرب النوم دون فقدان الوعى .. هناك نوم من غير نوم كالذى يمارسه الحراس الليليون .. أنت نائم لكنك متيقظ كذلك .. هذا يجعلك تحلق لترى جسدك من الخارج .. أعنى أنك ترى ما تتصور أنه جسدك .. كل ما ينشط موجة (ثيتا) فى المخ يسبب رؤيا مماثلة ، وقد اخترعت مؤسسة (مونرو) جهازًا ذا سماعتين اسمه (هيمى سنك) Hemi - Sync تضعه على رأسك فتسمع ذبذبات معينة تغرقك فى التأمل والاسترخاء .. بهذا يمكنك أن ترى كل شىء .. هناك عقارات كثيرة تحدث هذه الحالة .. كل مايؤدى إلى حرمان حسى يمنعك من استقبال ما تقدمه لك الحواس ، يقوم العقل وقتها بتأليف مدخلات حواس جديدة .. أى إنك تشم بلا أنف وتسمع من غير أذنين ، وتلمس من غير أنامل ، وتذوق من غير لسان ، وتسمع بلا أذنين . . ليس هذا صعبًا أو غريبًا .. تذكر أن هناك حالة مماثلة تمر بها كل ليلة وأنت نائم .. هذه الحالة اسمها (الحلم) .. »

انتهت المحاضرة ، فسألته بوضوح :

- « إذن أنت لا تعترف بتجارب الخروج من الجسد .. »

قال فى حزم :

- « لا أعرف .. فقط قلت إن هناك طرقًا كثيرة جدًا لإحداثها، إن ألعاب المخ معقدة .. أنا كذلك لا أنكرها .. إن هناك من مروا بها ووصفوا أمورًا رأوها فى الغرف المجاورة .. أمورًا لا يمكن أن تصفها ما لم تَرها من أعلى .. لكن .. لنقل إن هذا ليس موضوع اهتمامى .. »

- « نفس الشىء ينطبق على تجارب الدنو من الموت ؟ »

هز رأسه نافيًا :

- « لا .. لا يمكن تفسير الظاهرة كلها على أساس نفسى أو كيميائى .. هناك تجربة غريبة مررتم بها ، وأنا ميال إلى أنها ذات طابع ميتافيزيقى .. أنتم اقتربتم فعلاً من العالم الآخر، دخلتم إلى المعبد المقدس حيث سر الأسرار الذى حير البشرية، ثم عدتم .. »

سألته ، وأنا أنظر إلى الجالسين :

ـ « أنت إذن تجمعنا كما يجمع غيرك الطوابع أو بطاقات البريد .. ما سبب هذا الاهتمام الغريب ؟ »

قال بلهجة ذات معنى :

ـ « أنا نفسى مررت بتجربة مماثلة .. والآن صار همى أن أعرف .. أن أفهم ما رأيناه حقًا .. ما رآه كل منكم .. لهذا أجمعكم هنا .. ودعنى أؤكد لك إن هذه هى ليست المرة الأولى التى تلتقى فيها هذه المجموعة .. فقط هى أول مرة لك .. إن الأمر يتعلق بناد فريد من نوعه .. نادى العائدين من الموت ، الذين ما زالت التجربة تهزهم .. ربما بالحيرة .. ربما بمذاق دينى .. ربما بالرغبة فى أن يروا هذه الأحداث ثانية .. المهم أننا جميعًا نلتقى هنا .. »

كنت قد بدأت أفهم ..

ارتجفت للفكرة ونظرت إلى الجالسين حولى ، فخمنت أننى على الأرجح على حق ..

عيونهم المتسعة ونظراتهم لى قالت الحقيقة ..

رفعت رأسى ، وبصوت مبحوح سألت :

ـ « هل تكرر التجربة هنا ؟ »

قال من دون أن يبعد عينيه عنى :

ـ « نعم .. »

ـ « وعلى من ينضم لهذه الجماعة أن يقبل هذا ؟ »

ـ « قد لا يقبله على نفسه .. أنت حر .. لكن يقبله بالنسبة للآخرين.. »

ـ « وهذا يعنى ؟ »

ـ « يعنى أن ما تراه هنا سيظل سرًا .. لهذا نحن لسنا فى سافارى .. أنا أجرى هذه التجارب على مسئوليتى الخاصة، لكنك تلاحظ أننا ثلاثة أطباء الآن .. »

ثم نهض فى تؤدة وأزاح ذلك الستار الأخضر الذى حيرنى ..

حركةً مسرحية ، لكنها أظهرت لى سرير فحص ومرقابًا على كومود جوار السرير ، والكومود عليه مفرش طويل يلتف من حوله .. هناك نازع استقطاب Defibrillator ..بالنسبة لمن ليسوا أطباء هنا أقول لهم إنه ذلك الجهاز الذى يثبتون أقطابه على القلب صائحين : إخلاء ! ثم يوجهون صدمة كهربية لقلب المريض المتوقف .. أنتم ترونه فى السينما بكثرة ..

هناك محاقن .. هناك زجاجات أدوية .. هناك قناع أكسجين .. هناك كاميرا فيديو مثبتة على حامل ..

قال (ماندريك) :

- « أعتقد أن الدور على شتاينبرج »

القصة واضحة تمامًا ..

★ ★ ★

- 9 -

عارى الجذع على السرير يرقد (كارل شتاينبرج) الصطر الألمانى ، بينما نقف حوله ..

الحقيقة أن المشهد غريب يوحى بأننا نقف خاشعين لـ لحظة احتضاره .. فى الوقت ذاته تشعر بأنك فى عناية مركزة فى مستشفى ، لكن أية مستشفى تلك بهذه الجدران المتهالكة والمصباح الواهن المعلق من السقف ؟ خليط غريب من المشاعر والأماكن والأجواء حتى تحسب أنك تحلم ..

يثبت (ماندريك) أقطاب تخطيط القلب الكهربى بينما (شتاينبرج) يحاول أن يبدو مرحًا .. على قدر علمى هذا رجل يتأهب للموت وإن كان يأمل فى أن يعود منه .

ملت عليه ، وسألته :

- « لماذا تفعل ذلك ؟ »

قال ، وهو يتحسس معصمه :

- « لأننى أريد أن أرى تلك اللحظات مرة أخرى .. أريد أن أعرف .. كأنه فيلم سينمائى لم تتابعه فى ظروف جيدة أول مرة ، هكذا تتمنى أن تدخله ثانية . مباراة فاتتك هدفها الوحيد هكذا تجلس للإعادة متنبه الحواس مرهفها .. »

وماذا لو لم تعد ؟ لم أسأله هذا السؤال طبعًا لكني تمنيت لو فعلت ..

هكذا وقفنا في خشوع ننتظر . بينما أولج الطبيب البريطاني المحقن في عروقه .. كان قد ثبت قناة وريدية تحسبًا لما قد يحدث ، ثم بدأ في حقن مادة مخدرة ..

لا أعرف إن كان هذا المنطق يناقض نفسه أم لا .. هكذا لن يكون هناك وعي .. إذن ما قيمة التجربة ؟

على كل حال ارتخى جفنا الرجل وهدأت حركته ، عندها جاءت اللحظة الخطرة ..

حمل (ماندريك) أقطاب جهاز نازع الاستقطاب ثم أعلن لنا :

- « إخلاء ! »

والصق الأقطاب الرهيبة بصدر (شتاينبرج) ثم دوى صوت الصدمة الكهربية .. شلاك ! بوم ! انتفض الجسد بتلك الطريقة المثيرة للشفقة ، ثم همد ..

وعلى شاشة المرقاب تحولت الضربات المنتظمة إلى خط مستقيم مخيف يوحى بالموت ..

لقد توقف القلب !

هنا استعمل الجهاز بالعكس .. بدلاً من توجيه صدمة كهربية لقلب متوقف كى يعمل ، تم توجيه صدمة لقلب يعمل جيداً هكذا تحولت ضرباته إلى خط ...

إنه الآن على حافة الأبدية ..

* * *

عينا (ماندريك) القلقتان تراقبان عقرب الثوانى ..

العرق يحتشد على جبينه .. ينتظر بعض الوقت ..

نتبادل النظرات فى توتر .. رائحة الأدرينالين التى تشمها الوحوش بسهولة ، ويبدو أننا صرنا قادرين على شمها بدورنا ..

يهمس البريطانى (جيروم ستيوارت) فى قلق :

ـ « هلم .. لقد حان الوقت .. »

لو تأخر أكثر من اللازم لتأذى المخ من نقص الأكسجين .. معنى هذا الموت ـ فى أحسن حالات ـ العته أو العمى أو الشلل ..

يأخذ (ماندريك) نفسًا عميقًا ويفرغ شيئًا فى القناة الوريدية ، ثم ينظر إلى شاشة المرقاب حيث يرتسم الخط الطويل المنذر بالنهاية .. يقول لنا وهو يمسك بالأقطاب ..

- « إخـلاء ! »

هذه هى طريقة (فرانكنشتاين) فى الرواية الشهيرة .. طريقة هز الساعة المتوقفة لتعمل .. نفس الشىء يتم هنـا بشكل عملى .. فرانكنشتاين استخدم الكهرباء لهز الساعة .. البرق بالتحديد .. نفس الشىء يتكرر هنا كذلك .

من جديد يلصق الأقطاب بالصدر . ثم شلاك ! بوم ! ينتفض الجسد بتلك الطريقة المثيرة للشفقة ، وفى هذه المرة نرى على الشاشة أن مسيرة الجمال قد بدأت .. القلب عاد يدق ..

تنفس الصعداء .. بينما يثبت (مـالدريك) القناع على وجه المريض ..

الأخير يسعل .. يحاول النهوض ..

فى النهاية بدأ يهدأ وتنفسه ينتظم ..

أخيراً فتح عينه ونظر لنا نظرة زائغة ، وهتف :

- « كم الوقت الآن ؟ هه ؟ كم الساعة ؟ هه ؟ »

قال البريطانى فى برود :

- « أنت غبت عن الوعى دقيقتين ! »

ـ « حسبت أننى هناك منذ أيام ! »

هذا معتاد على كل حال ، ومن الواضح أن الإحساس بالزمن هو أول ما نفقده عندما نفقد الوعى .. أو أن الزمن نسبى فعلاً .. ربما كان زمنه هو الصحيح وكانت ساعاتنا خادعة ..

هناك الزمن الذى غابه عن الوعى فعلاً وهو دقيقتان . هناك الزمن الذى استغرقته تجربته وهو فى رأيه أيام .. هناك الزمن بالنسبة لنا ونحن نراقب التجربة ، وهو عدة قرون !

صاح وهو يبكى بدموع حارة غزيرة :

ـ « أنا كنت هناك ! لقد رأيت النفق ! »

* * *

- 10 -

بالفعل رأى النفق ..

حكى لنا هذا كله وهو يستجمع قواه ..

كانت القصة مألوفة .. الظلام .. الأزيز .. الطيران .. النفق ..
كل هذا تم تسجيله وهو يحكيه .. وقد استغرق ربع ساعة فى هذا السرد الذى بدا لى مألوفًا .. وقد قال لى (ماندريك) بعدها :

- « هذا حظ حسن .. لا يمر كل من يجتازون هذه التجربة بذات اللحظات .. أحيانًا لا يحدث شىء .. »

قلت له من دون حماس :

- « جميل .. لكن كلامه معتاد أكثر من اللازم .. كلام أسمعه بكثرة .. »

- « ماذا تريد قوله ؟ »

قلت فى حذر :

- « ما دور تأثير قصص العائدين من الموت على من يحكون هذه التجارب فيما بعد ؟ أنت تعرف أن الطبيعة تقلد الفنان .. »

- « أوسكار وايلد Wlide .. »

ـ « نعم .. من هنا سوف يعود المرء من تجربة توقف القلب ليحكى لك ذات الأشياء .. هو لم ير شيئًا لكنه تخيل أنه رأى ما قرأ عنه آلاف المرات .. هناك من قال إن السكارى يرون أفيالاً وردية ، وهكذا صار واجبًا قوميًا على أى سكير أن يرى أفيالاً وردية .. »

نظر لى مفكرًا ، وقال ما معناه (وجهة نظر) ، ثم أضاف :

ـ « أنت رأيت التجربة .. هل لك خبرة بها من قبل ؟ »

ـ « لا .. »

ـ « هل قرأت عنها الكثير ؟ »

ـ « بصراحة .. لا .. قرأت القليل أو لا شيء .. »

ـ « إذن من أين رأيت ما رأيت ؟ من أين جاءت الأفيال الوردية ؟ »

ـ « لا أعرف .. »

ـ « إذن من الوارد أن السكارى يرون أفيالاً وردية ، ومن الوارد أن من تتوقف قلوبهم يجتازون نفقا .. »

ثم نظر إلى ساعته ، وقال :

- « الواحدة صباحًا .. أعتقد أن علينا أن نعود إلى سافارى .. سوف توصلنا السيارة معًا .. »

ثم صاح فى الجالسين وفى الرجل الراقد على سرير الفحص والذى صار قادرًا على الجلوس :

- « سوف نعود يا شباب .. موعدنا الخميس القادم ! أرجو أن تتأكدوا من د. علاء حصل على أرقام هواتفكم وطريقة الاتصال بكم والعكس .. إن التواصل مهم جدًا هنا ، ونحن نرغب فى أن تكون العلاقات البشرية مستمرة .. »

ثم أشار إلى الفتاة البريطانية :

- « دورك هو القادم يا (مارى) .. هل أنت موافقة ؟ »

هزت رأسها فى مزيج من النفور والشغف .. هى تريد ولا تريد ، وتشعر بكليهما بشدة .. الطفل الذى يشتهى ركوب القطار الأفعوانى لكن كل عضلة فى جسده تأبى ذلك .. لماذا تقبل ذلك ؟ لأنها تريد أن تعيش التجربة من جديد وتتحقق مما فاتها .. نفس ما قاله الألمانى .. لأن هناك نوعًا من الإدمان فى هذا الذى حدث ..

ثم إن (ماندريك) قال للبريطانى وهو يشير إلى (شتاينبرج) :

- « هو لن ينصرف إلا فى الصباح .. لن نطمئن على رحيله . سوف تقضى معه الليلة كما اعتدنا .. »

هز البريطانى رأسه موافقًا ..

بعد دقائق كنت فى السيارة جوار (ماندريك) بينما السائق الأفريقى ينهب الطريق المظلمة عائدًا لوحدة (سافارى) ..

* * *

جاء يوم الخميس ليجد السيارة تنتظرنى ..

نفس الرحلة الغريبة فى الظلام إلى ذلك البيت فى (ديربان).

عندما صعدت هذه المرة لم تكن هناك أسئلة .. لقد صرت أعرف الباقين جيدًا وصاروا يعرفوننى ، وثمة علاقة ما من المودة نشأت بيننا .. نحن متفاهمون تمامًا .. كلنا جرب هذه التجربة الغريبة ولم يعد محتاجًا إلى الشرح .. الناس بالخارج لن يفهمونا لكننا نفهم بعضنا جيدًا ..

أشار (ماندريك) إلى تلك الفتاة (مارى ماكلويد) فنهضت لتأخذ دورها . كانت متوترة ومعها الحق لكن شيئًا من الشغف كان يميز سلوكها .. كانت تلبس بلوزة خفيفة فكان من السهل أن تلصق الأقطاب من تحت الثياب ، ثم تدثرت بالملاءة جيدًا ونامت على سرير الكشف ..

جثا البريطانى - الذى أنسى اسمه باستمرار - جوارها وحقنها فى القناة الوريدية ، ثم انتظرنا حتى أغمضت عينيها ..

جاء دور الصدمة الكهربية للقلب .. أدخل (ماندريك) يده تحت الملاءة وصاح بنا :

- « إخـلاء ! »

ثلاثة بوم !!

انتفض الجسد .. وبدأت رحلتها ..

جيروم ستيوارت .. اسمه جيروم ستيوارت .. الآن أتذكر ..

من جديد ننظر لعقارب الساعة .. من جديد نحبس أنفاسنا .

لم أعرف من قبل شيئًا يمكن مقارنته باللعب بالنار مثل هذا ! .. أن ترسل شخصًا إلى حافة الموت ثم تحاول أن تعيده ..

عقرب الثوانى يتحرك .. يتحرك .

ثم يصيح البريطانى أن الوقت قد حان ..

يفرغ المحقن فى ذراعها ، ثم يضع الأقطاب ويأمرنا بالإخلاء ..

بوم !

لكن القلب لا يستجيب ..

ما زالت نبضاته ترسم - أو لا ترسم - ذلك الخط المسطح الممتد على شاشة المرقاب !

* * *

- 11 -

كان فى منيسوتا فى ذلك الوقت..

منذ عشر سنوات .. الطبيب النفسانى الشاب (جوزيف ماندريك) .. ضخم الجثة رقيق الطباع كطفل ..

الوالد متوفى ، وهو يقيم مع أمه .. العجوز الأمريكية الرقيقة ذات العوينات والشعر الأبيض كالثلج .. صغيرة القد جداً حتى ليندهش الناس من كونها رزقت بطفل بهذا الحجم ..

أم رقيقة أمريكية جداً ، لكنها عرفت بالفعل كيف تسيطر على كل مفاتيح حياته .. أناملها تتغلغل فى كل شىء ..

لم يعرف فتاة إلا وتفحصتها فى عناية ثم تخلصت منها (لأنها رقيعة أو بلهاء) .. كل صديق يدعوه لداره كان يخضع لفحص دقيق ينتهى لطرده غالبًا ..

أم أمريكية رقيقة ، لكنه كان فى قبضتها ..

بحكم عمله كطبيب نفسى قرأ الكثير عن السفاح الأمريكى (إد جين) ، وأثار ذهوله أن سبب كونه سفاحًا هو ارتباطه الشديد بأمه .. لقد مرضت المرأة ففقد أى قدرة له على مواجهة العالم ، ثم توفيت فلم يستطع أن يسمح لها بأن تُدفن .. فيما بعد صار

سفاحًا يسلخ جلود ضحاياه ليصنع منها عباءة واسعة يلبسها أمام المرآة فتشعره بأن أمه موجودة ! هذا السفاح هو الذى أوحى لروبرت بلوخ Bloch بقصة فيلم (سايكو) فيما بعد ، وهو الذى أوحى بسفاح فيلم (صمت الحملان)..

بالطبع لم يبلغ (ماندريك) هذه الدرجة من الحماس، لكنه كان يقرأ هذه القصص ويرتجف من الخراب النفسى الذى يمكن أن تسببه سيطرة الأم أكثر من اللازم ..

فى مجتمع مثل أمريكا يصير من الطبيعى أن يهجر الفتى البيت فى التاسعة عشرة أو أقل ، لكن فكرة كهذه لم تخطر ببال (ماندريك) قط .. لقد ظل يعيش فى البيت حتى الثلاثين .. لم يتزوج ولم يعرف أية فتاة ..

فى البداية كان يروق للفتيات باعتباره (الفتى الضخم الوسيم) ، لم يكن يتعرفن به أكثر فيشعرن بأنه ابن أمه بالمعنى الحرفى للكلمة .. هكذا يهربن ما لم تقم أمه بدور طردهن ..

هذه هى النشأة الغريبة التى نشأها (ماندريك) والتى زادها سوءًا ما درسه فى علم النفس .. عندما يصير المريض النفسى طبيبًا نفسيًا فإن حالته تتفاقم .. لن يعالج نفسه كما فعل فرويد ..

هكذا فى سن الثلاثين قرر (ماندريك) أن يتمرد ..

كانت أمه واقفة فى المطبخ تعد الحساء الذى يحبه .

دخل إليها وهو يحمل حقيبته فنظرت له بدهشة..

قال لها :

ـ « أماه .. لنجعل هذا سهلاً .. أنا راحل ! »

السيدة صغيرة الحجم الرقيقة تنظر له فى ذهول :

ـ « راحل ؟ إلى أين ؟ »

ـ « لا أدرى .. لا أعرف من أين أبدأ لكنى سأجرب حيلتى بعيدًا .. »

ـ « أنت مجنون .. لن تستطيع أن تعيش وحدك يومًا واحدًا .. »

ـ « ربما أعيش يومين .. سأرى.. »

واستدار مبتعدًا .. يا لك من جاحد أحمق ! أنا التى أقف كل هذا الوقت أعد لك الحساء الذى تحبه ! أنت مجرد طفل . طفل يبول على نفسه ويبلل سراويله ولابد من تبديل حفاضته .. لو اعتقدت للحظة أنك ستعيش يومًا آخر وحدك فأنت ساذج ..

تقف تراقبه من على باب المطبخ الخلفى وهو يبتعد بحقيبته وسط أحبال الغسيل ..

تصيح بأعلى صوتها :

- « أراهن أنك نسيت الجوارب ! أراهن أنك نسيت آلة الحلاقة ! »

الحقيقة أنه تذكر الآن أنه لم يأخذ معه الجوارب ، لكن لا مشكلة .. سوف يجرب شراءها بنفسه .. لم لا ؟ لن يقتله البائع أو تسخر منه البائعات ..

تصيح :

- « كل هذا من أجل الفتيات أيها المائع المنحل ! »

الفتيات الشقراوات المائعات اللاتى لا تعرف الواحدة منهن كيف تقف ساكنة ربع دقيقة .. الفتيات اللاتى يلبسن الشورت والبلوزات القصيرة .. الفتيات اللاتى يدمرن الرجال الضخام السذج مثل ابنها ..

لكن صوتها يخفت وهو يبتعد ..

يبتعد ..

يبتعد ..

* * *

(إريك بالمر) أخبرها ..

هذا مؤكد ..

لقد أقام عند صديق عمره (إريك بالمر) الذى كان قد طلق زوجته منذ زمن . انتزع وعدًا من صديقه ألا يخبر أمه بمكانه .. سوف تتصل .. أنا أعرف هذا ..

ينظر له (إريك) بوجهه الخمول البدين ، ويسأله :

ـ « إذن .. أنت مختبئ من أمك ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « هذه السيدة الرقيقة الضئيلة ؟ وأنت فى حجم (كينج كونج) لو أصيب بالتعملق ؟ »

ـ « نعم .. »

ينظر له (إريك) من جديد فى دهشة ويكتم خواطره ..

لقد مرت الأيام ، وهو لا يذهب لعمله منذ فترة .. فقط يضع الخطط كى يذهب إلى أفريقيا ليعمل فى تلك الوحدة الغامضة المدعوة (سافارى) .. مراسلات مع (واشنجتون) ومع المركز الرئيس فى النمسا ..

عندما دق جرس الهاتف ..

كان وحده فى الشقة ، ولم يعرف ما يجب أن يفعله .. لقد اعتاد ألا يرد على المكالمات .. لكن فى هذه المرة شعر بشىء أقوى منه يدفعه إلى رفع السماعة ..

وضع السماعة على أذنه وظل صامتًا ..

هذا صوتها .. صوتها الواهن المبحوح :

- « هاللو .. »

ظل صامتًا وقلبه يوشك على الخروج من ضلوعه .. ما كل هذا الجبن ؟ كل هذا الذعر ؟ لم ير هذا الهلع من قبل إلا لدى بطلات أفلام الرعب الوحيدات اللاتى يتصل بهن السفاح ..

جاء صوتها من جديد :

- « جو .. أهذا أنت ؟ »

لم يرد ..

- « جو .. »

كان يعرف أنه لو رد لتكلمت . وعندها ينتهى كل شىء .. سوف يحزم حقيبته ويعود للبيت كما كان .. لن يقدر على المقاومة ..

هكذا وضع السماعة ..

★ ★ ★

فى اليوم التالى جاء (إريك بالمر) يبلغه بالخبر .. أمه قد ماتت !

لا يعرف أحد ما حدث .. فقط كانت هناك فى المطبخ على الأرض وفى يدها سماعة الهاتف .. يعتقد رجال الشرطة أنها شعرت بمبادئ نوبة قلبية فطلبت رقمًا ما لينقذها .. لم تطلب 911 بل طلبت رقمًا ما ..

رقمًا ما ..

وفى الأيام التالية زارته مرارًا فى المنام .. كانت تنظر له فى صمت وتبتسم .. نفس ابتسامتها عندما شمت رائحة التبغ فى غرفته لأول مرة وهو مراهق..

كان يتوقع أن يصاب بشلل هستيرى أو يجن لكن شيئًا من هذا لم يحدث . تكفل الدفاع فى عقله الباطن بمحو الصورة .. صورة السيدة الضئيلة المسنة ملقاة على أرض المطبخ وتطلب ابنها تكلمه فى رفق كى لا تثير ذعره .. لكنها تعرف أنها تموت ..

هذه الصورة قد انمحت من خياله .. بالطبع يجب أن يحدث ذلك وإلا جن ..

وجهها الرقيق يطارده أثناء النوم .. يطارده فى كل خطوة .. يطارده فى الطائرة . يطارده فى جنوب أفريقيا ..

ثم حدث الحادث الشهير عندما كان يبدل أحد المصابيح فى شقته فى ديربان ..

لقد صعقته الكهرباء وتوقف قلبه بعض الوقت ..

ثم استطاعوا أن يعيدوه ..

ما أثار جنونه هو أنه لم ير أى شىء .. لم يحدث له أى شىء فى لحظات توقف القلب تلك .. لقد كان نعاساً ثقيلاً بلا أحلام عاد منه .. لم يتذكر أى شىء ولم يرو أى شىء ..

أصابه الجنون وخيبة الأمل ..

لطالما توقع فى لحظات كهذه أن يرى أمه .. كلهم يفعل هذا .. لو لم يرها فى تلك اللحظات فمتى ؟ سوف يجثو أمامها ويطلب الصفح ، وسوف تفهم وتبتسم ..

عندها تزول الرؤى وتكف عن زيارته فى منامه ..

هكذا ظل يتابع باهتمام كل ما قرأه أو سمعه عن ظاهرة الـ NDE وراسل (ريمون مودى) عدة مرات .. كلما سمع عن شخص مر بهذه التجربة ورأى أحباءه شعر نحوه بحسد عظيم ..

هذا كان مشروع عمر (ماندريك) ..

لقد قام بتكوين ناد صغير يضم هؤلاء الذين مروا بهذه الخبرة .. الذين اقتربوا من الموت وعادوا .. من هنا يبدأ البحث ويعرف ما هو أكثر عن تلك الظاهرة ..

يجب أن يقتنها ..

يجب أن يفهمها ..

يجب أن يرى أمه ولو لحظة واحدة ..

* * *

- 20 -

هذه المرة أولج إبرة (الأدرينالين) بين الضلوع وشعر بعضلة القلب تعترض الإبرة .. أولج الإبرة وحقن ..

بينما كان الطبيب البريطانى يوجه ضربات للصدر ..

نظر لى الألمانى فى عصبية ، وقال :

- « وأنت ؟ لماذا لا تساعد ؟ »

هذا صحيح .. هناك ثلاثة أطباء فلماذا يعمل اثنان فقط ؟

كان هناك جهاز (أمبو) الخاص بالتنفس الصناعى فوضعت العكاز جانبًا ، وجلست على مقعد وأوشكت على البدء ، لكن (ماندريك) صاح مغضبًا :

- « أنت تزيد متاعبنا هنا .. اجلس من فضلك ! »

كم مر من الوقت الثمين ؟؟ كم بقى ؟ هل تأخرنا أكثر من اللازم ؟

- « هلم .. استجيبى أيتها الحسناء .. استجيبى ! »

فجأة بدأ المرقاب يصدر صوتًا .. نظرنا غير مصدقين فرأينا الموجات ترتسم عليه من جديد .. لقد عاد القلب ينبض ..

فتحت عينيها والقناع على أنفها . فصاح (ماندريك) :

ـ « لا تنهضى ! »

هكذا استمرت عملية الإحياء بعض الوقت . بينما الباقون يلتفون حولنا فى توتر يراقبون ما يحدث ..

إنها تسعل .. تفيق .. تئن ..

من جديد أصدر (ماندريك) تعليماته للطبيب البريطانى ـ الذى أنسى اسمه ـ أن يبقى معها حتى الصباح ، وأشار لى كى ننصرف ..

★ ★ ★

ـ « هذا الذى تقوم به هو الخطورة بعينه ! »

كان هذا أول ما قلت ونحن فى السيارة .. كان أقرب إلى انفجار عصبى لا يبقى ولا يذر ..

ـ « المجازفة بحياة البشر من أجل رؤى .. ما قيمة هذا ؟ لن يجيب عن سؤال واحد . كل منهم سيعود ليتكلم عن النفق ، وهو قد تكلم عنه من قبل فما الجدوى ؟ من بلغ مرحلة أبعد من هذه التى تعرفها قد مات ! أى إنك لن تسمع حرفًا إضافيًا ! »

لم يرد وراح يتأمل معالم الطريق المظلم ..

عدت أقول بذات العصبية التى لم يعرفها عن طباعى بعد :

- « لقد كدنا نفقدها .. أعتقد أنك ستفقد واحدًا من هؤلاء بسهولة . ومن أجل ماذا ؟ »

هنا نظر لى ، وقال ببرود :

- « هل يعنى هذا أنك لن تخوض التجربة ؟ »

- « لن أخوضها ولا أريد أن يخوضها أحد .. »

- « هذا ليس من حقك .. الأمر يتعلق بالحرية الشخصية لعدد من البالغين .. »

قلت فى حزم ، وأنا أنظر خارج النافذة :

- « ليكن واضحًا لكم تتلاعبون بالحياة البشرية إلى حد مفجع .. وهذا ما لا أقبله .. »

أشعل لفافة تبغ ونظر لى .. عيناه تلمعان فى الظلام وهو يقول :

- « هذا الذى رأيته يحدث مرة كل ثلاث مرات .. لم نعد نفقد أعصابنا من جراء هذا .. »

قلت فى حزم :

- « لا أريد أن أكون سمجًا .. لكن واجبي يقضي بأن أبلغ إدارة الوحدة عن هذا الذي رأيته .. »

كما تشاء ..

وارتجفت لفافة التبغ في فمه .. بدا كلّه على وشك التهاوي ..

انتظر لحظة حتى استجمع أعصابه ، ثم قال لي :

- « أنا أيضًا لا أريد أن أكون سمجًا ، لكن اسمح لي بأن أذكرك بأنك شاركت في تجربة كاملة .. تجربتين .. كنت تعرف ما يحدث وخبرتك الطبية تسمح لك بذلك ، وبرغم هذا شاركت .. شاركت والتزمت الصمت .. لدى الشهود على ذلك ولدى شريط فيديو يظهرك وأنت تشارك في التجارب ! »

- « هل هو التهديد ؟ »

- « لا أعتبره تهديدًا .. أنا فقط أعزف على نفس النغمة التي عزفتها أنت .. »

كان على حق .. على حق بشكل تام ..

وعرفت أن هذه غالبًا آخر مرة أقصد فيها هذه الاجتماعات الرهيبة ..

لقد انتهت علاقتى بجمعية العائدين من الموت ..

* * *

كانت جلسة طويلة مع الخبير القانونى فى (سافارى) فى مكتبه المغلق ..

كان أفريقيًا يدعى (جورج كاموهيلو) وهو رجل وقور يذكرك بموجه اللغة العربية فى مدرستك الثانوية .. نظرة صارمة وشارب رفيع أبيض وعوينات سميكة وبذلة أنيقة .. نسر قانونى حقيقى يوحى بالثقة والعلم ..

سمع قصتى بالتفصيل وهو يعبث بالقلم الجاف الذى يصدر (تكتكة) إياه ..

بعد ما انتهيت هز رأسه فى أسى ، وقال :

- « لماذا سمحت لنفسك بالتورط فى هذا كله يا دكتور ؟ »

قلت فى ارتباك :

- « إنه الفضول أولاً .. الفضول والدهشة .. ثم تفيق لتدرك أنك فعلاً حضرت أول تجربة وشاركت فيها .. »

قال مفكرًا :

ـ « هذا يسبب لك الكثير من المتاعب فعلاً .. أعتقد أن الطرد من الوحدة أمر وارد .. لا أعتقد أن عليك ذنبًا قانونيًا لكن الخطأ الإدارى فادح ، فأنت تملك من الخبرة ما يسمح لك بتقدير خطورة هذه اللعبة .. رأيى الخاص أن تنسى الموضوع .. ابتعد عنهم .. هم سيبتعدون عنك .. لو حدث خطأ سيدفعون هم ثمنه من دون توريطك .. أما لو تكلمت فلسوف يكون أول دفاع لهم هو أنك شاركت .. »

ـ « وماذا عن أول المتوفين ؟ سيكون هناك واحد حتمًا ولسوف أكون مسئولاً عنه .. »

ـ « لا أعتبرك مسئولاً عن أى شىء .. »

عندما خرجت من عنده شعرت كأننى نلت صك غفران من صكوك القرون الوسطى ، عندما كان الخاطئ يذهب إلى الكنيسة الكاثوليكية ليشترى بماله صكًا يثبت أن الرب قد غفر له خطاياه ! شىء لا قيمة له لكنه يريحنى شخصيًا .. يمكن أن أزعم للفسى أننى طلبت رأى من هو أكثر خبرة وكان رأيه أن أخرس ..

سأخرس ...

★ ★ ★

- 13 -

الآن يمكن القول إننى تخليت عن العكازين أخيرًا .. أمكننى أن أغادر الحديقة التى كانت محبسى وأنضم إلى آلة سافارى الرهيبة ..

رحب بى الجميع ، وبخاصة من كانوا سبب الحادث .. وقال لى (فاسيلى) إنه اكتشف أننى مهم إلى حد ما .. لهذا أصرّ على أن أحضر معه جراحة عظام يؤدى فيها دورًا مهمًا ..

كنت قد اشتقت إلى غرفة الجراحة .. هذا الجو المعقم المتوتر الساحر .. حيث تشعر بأنك تغير بيدك أشياء ، بينما الآخرون ينتظرون أن يرضى عنهم العقار ويعمل ..

هكذا اجتزت إجراءات التعقيم ، ووقفت هنالك جوار منضدة العمليات بينما الكشافات تسلط على عظمة الفخذ المهشمة لدى مريض مسن ..

طبيب التخدير الألمانى (آرتور يورجين) يراجع أجهزته وخراطيمه ، ثم يثبت القناع على وجه المريض .. يضع هو نفسه القناع على وجهه فتبرز لحيته الكثة من الجانبين مما يعطيك انطباعًا مضحكًا بأنه غوريلا تجرى جراحة ..

جواره يقف مساعده الألمانى بدوره (بيتر شىء ما) ، وهما يتبادلان حديثًا سريعًا بالألمانية لا تفهم حرفًا منه ..

بينما بدأ الجراحون العمل سألت (يورجين) على سبيل الدعابة :

ـ « هل هناك قانون يحتم أن يكون كل أطباء التخدير هنا ألمانًا ؟ »

قال ضاحكًا من وراء قناعه السميك :

ـ « كنا أكثر من هذا .. لقد فقدنا (كارل) كما تعلم .. »

ـ « كارل ؟ »

ـ « نعم .. (كارل شرايدر) .. المسكين .. »

هنا قال الجراح المنهمك فى شق الجرح :

ـ « لقد قتله الإدمان .. »

قال (يورجين) فى غضب حقيقى :

ـ « لا تقل هذا .. لا أحد يدمن الـ DMT فى رأيى .. لكى تتعاطاه يجب أن يكون هناك من يحرسك .. من يسمونه (حارس الرحلة) لأن أحدًا لا يضمن ما قد تفعله بنفسك .. »

ـ « مثل عقار الهلوسة LSD .. عندما يتعاطاه أربعة يجب أن يمتنع واحد منهم عن التعاطى ليراقب الثلاثة الآخرين .. قد يقتلون أنفسهم أو يحدقون فى قرص الشمس إلى أن يصابوا بالعمى .. »

- « هذا هو ما يحدث مع DMT .. لا أحد يتعاطاه وحده .. قليلون هم من يأخذونه حقنًا .. أغلبهم يشمه شمًا .. »

- « هل يمكن تعاطيه بالفم ؟ »

- « فقط مع جرعة من مثبطات إنزيم الـ MAO .. وإلا لن يحدث أى تأثير .. »

هنا تدخلت فى المحادثة :

- « من تكلم عن هذا العقار هنا ؟ ما دخله بوفاة الفقيد ؟ »

- « الطب الشرعى أثبت وجود آثار من عقار DMT فى المحقن .. ومن الغريب أنه كان يحمل فى جيبه مورفينًا ، ولهذا افترض الجميع أن المحقن يحوى المورفين .. »

ثم هز رأسه فى حيرة :

- « أتساءل من أين جاء بكل هذا الـ DMT ليتعاطاه ! إنه عقار نادر فعلاً .. »

وقاس ضغط الدم للمريض النائم ، ثم قال :

- « لا بأس .. كنا نتكلم عن العقار .. إن تأثيره غريب كذلك .. من يتعاطوه يحكوا قصصًا غريبة عن أطباق طائرة اختطفتهم ، وعن الطيران فى ظلام أسود .. نفق أسود طويل لا نهاية له ثم ينتهى بنور ساطع مبهج ! »

نظرت له فى دهشة ، وسألته :

ـ « لكن هذا هو بالضبط ما يقوله من يمرون بالـ NDE .. تجربة الدنو من الموت .. »

ـ « بالضبط .. لهذا يرى علماء كثيرون أن تجربة الدنو من الموت كيميائية فى الأصل ولا علاقة لها بالعالم الآخر .. »

* * *

مكتبة وحدة سافارى هنا فقيرة كما وجدتها فى أية وحدة أخرى ، لكنى لم أكن أبحث عن معلومات متحذلقة .. أريد قشرة تضىء لى طريقى .. ومن الممكن جداً أن تجد القشرة هنا ..

كنت طيلة حياتى أمقت علم الأدوية .. أعتبره ثمرة الزواج غير المقدس بين علمى وظائف الأعضاء والكيمياء الحيوية .. نتيجة هذا الزواج غير المقدس كائن شيطانى شرير يمكن أن يحيل حياتك جحيماً ..

هكذا بحثت عن عقار الـ DMT الذى أعترف بأننى لا أعرف سوى اسمه ..

وجدت معلومات غريبة فعلاً :

يعتبر الدكتور ريك شتراسمان Strassman حجة عالمية فى عقار الـ DMT وقد وجد أنه ينبعث من الجسم الصنوبرى فى المخ بكميات هائلة لحظة الوفاة .. هذا يؤدى إلى هلاوس محببة تجعل لحظة الموت محتملة ..

مادة DMT هى اختصار للفظة Dimethyltryptamine وهو كما يوحى الاسم من مشتقات التربتامين .. المادة التى نقابلها كلما تعلق الأمر بالتوصيل داخل المخ ..

تم تخليقه معمليًا للمرة الأولى عام 1931 إلا أنه موجود فى نباتات كثيرة .. إنهم يعرفونه فى أمريكا الجنوبية ويتعاطون مشروبًا يذهب العقل اسمه (أياخواسكا ayahuasca) يحوى كمية هائلة من هذه المادة ..

تعاطى هذه المادة بالشم أو الحقن يسبب هلاوس لا تدوم أكثر من نصف ساعة .. تبدأ الهلاوس السمعية والبصرية وتغيرات المزاج . لهذا يعتبرون تعاطى الياخواسكا تجربة صوفية فى البرازيل ، خاصة إذا تم تعاطيه بالفم لأنه يمنحك رحلة غريبة مدتها ثلاث ساعات كاملة .. تصور أن هذا الـ DMT مصدر عدة أديان تمارسها القبائل فى البرازيل ، وبعضها يمزج الشامانية بالمسيحية بتعاطى الـ DMT فى خليط عجيب ..

من جديد يظهر د. شتراسمان ليعلن أن ذات المشاهد المبهرة التى يراها من يمرون بتجربة الـ NDE يمكن أن تحدثها صناعيًا لو قمنا بحقن الـ DMT ..

* * *

كنت أنا أرتجف من فرط الانفعال ..

هناك طبيب نفسانى يفتش بنهم عن تجارب الـ NDE ويجربها بلا قلق ، وهناك طبيب ألمانى شاب يجدونه ميتًا ومعه محقن به آثار تلك المادة التى تسبب ما يشبه الـ NDE ..

هل يمكن الربط بين الحادثين ؟

أم أنها صدفة ؟ هذه الصدفة لقمة ضخمة لا أستطيع ابتلاعها بحق .. أن يكون هناك اثنان يمارسان تجارب الدنو من الموت فى وحدة سافارى ..

هل قتل (شرايدر) نفسه أم هناك من قتله ؟ بمعنى آخر : هل مات نتيجة خطئه هو أم نتيجة خطأ شخص آخر ؟

شخص تخلص من الجثة والمسئولية بهذه الطريقة ؟

إن عقلى يوشك على الانفجار ..

* * *

- 14 -

فى اليوم التالى قرأت كل ما وقع تحت يدى عن تجربة الدنو من الموت ..

المشكلة أن ترسانة العقاقير التى تحدث تأثيرًا مماثلاً كبيرة جدًا .. كل القبائل البدائية عرفت هذه العقاقير واستعملتها لأغراض دينية خاصة بها .. التحليق فى الفضاء والنشوة والانفصال عن الجسد .. ثم النور الساطع فى نهاية النفق ..

مثلاً عقار الكيتامين Ketamine هو العقار الأكثر أهمية فى إحداث هذه التجارب .. هناك طبيب اسمه (يانسن Jansen) وجد تشابهًا يدير الرءوس بين تأثير هذا العقار وتجربة الدنو من الموت .. السبب هو أن الكيتامين ينشط مادة معينة فى المخ، وهذه المادة هى ذاتها التى يفرزها المخ عندما يفتقر إلى الأكسجين .. أى أن الحقن بالكيتامين ونقص الأكسجين فى المخ كلاهما يؤدى لنفس النتيجة .. تجربة الدنو من الموت ..

هناك عالم اسمه (بلاكمور) قال إن سبب هذا الشعور العارم بالراحة والسلام هو إفراز مادة (الاندورفين) فى المخ .. هذه المادة مخدرة وتسبب حالة عامة من الانبساط .. والمخ البشرى

يحتفظ بها للحظات النهاية الأليمة كى يوفر على صاحبه عذابًا لا نفع منه .. لقد خلق الله للمخ البشرى القدرة على تخدير نفسه فى لحظات الألم الجامحة ، وعقار الاندورفين خير دليل على ذلك .. الفار بين أنياب القط لا يشعر بالألم الذى نتصوره لأن عقار الاندورفين يفرز بإفراط ليجعل النهاية محتملة .. هذه لحظة لا يصير الألم فيها مفيدًا .. الجسم يحافظ على وجود الألم لأنه ينقذنا من خطر الحرق والطعن ، لكن ما قيمة الألم عندما لا يكون هناك مفر ؟ الاندورفينات تجعل المريض يرى ضوءًا جميلاً بدلاً من أن يرى جسده الممزق والمسعفين المحيطين به .. وهناك من قال إن الضوء الذى يراه المريض هو ضوء كشافات غرفة الجراحة ..

عقار الهلوسة LSD نفسه سبب هلاوس مشابهة تمامًا ..

اعتاد المسعفون أن يصف هؤلاء الذين يلفظون أنفاسهم قبل الموت رؤية نفق وضوء ساطع ، وقد اقترح العلم الحديث أن سبب هذا الضوء الساطع نقص الأكسجين الوارد للدماغ مما يؤذى العصب البصرى .. قيل كذلك إن هذا الضوء ناجم عن (الفوسفينات phosphenes) وهى شحنات كهربية فى أطراف أعصاب العين تترافق مع نقص الأكسجين .. هناك من قالوا إن السبب هو إصابة الفص الصدغى الأيمن من المخ ، وقد استطاع

(مايكل برزنجر) طبيب الأعصاب فى (أونتاريو) أن يحدث ذات التأثير فى المتطوعين عن طريق تنبيه الفص الصدغى كهربيًا .. ويقول إنه أحدث خبرات صوفية وخبرات الخروج من الجسد .. باختصار استطاع صناعيًا أن يحدث كل أعراض هؤلاء الذين ماتوا وعادوا ، والذين خطفتهم الكائنات الفضائية .

السؤال هو : إذا كانت هذه مجرد ظاهرة كيميائية فلماذا لم يرها كل من عانى توقف القلب للحظات ؟ وإذا كان هؤلاء فعلا يقتربون من العالم الآخر ، فلماذا لا يمر الجميع بذات الظروف ؟

* * *

لقد بدأت قناعتى تهتز ..

بالفعل أعتقد أن ما حدث لى كان تجربة كيميائية لعبت بى فيها عشرات الموصلات فى مخى ، تلك التى شعرت بأنها محرومة من الأكسجين ..

هذا لا يتعارض مع الدين فى شىء .. تجربة الدنو من الموت لا علاقة لها بالعالم الآخر والثواب والعقاب .. وكما قلت سابقًا : سطح الجيران موجود سواء كان بوسعك أن تزحف فوق سطح دارك لتلقى نظرة عليه أم لا .. فشلك فى استراق نظرة لا يدل على شىء ..

لكن ما الذى يحاول (ماندريك) إثباته ؟

كنت جالسًا فى الكافتيريا مع د. (بورجين) طبيب التخدير الألمانى ، عندما قال لى عَرَضًا إن (شرايدر) كان صديقًا مخلصًا لـ (ماندريك)..

ـ « أنت تعرف أن الشعراء ينسجمون مع الأطباء النفسيين .. لا أحاول بهذا أن ألمح إلى أن الشعراء مجانين لو كنت قد فهمت هذا ! »

كنت مهتمًا بهذه النقطة ، فعدت أسأله :

ـ « هل كانا يقضيان وقتًا طويلاً معًا ؟ »

ـ « نعم .. واعتقد أن وفاة (شرايدر) قد أحدثت شرخًا ما فى نفسية (ماندريك) .. »

رحت أفكر فى هذا الكلام ..

صديقان .. كلاهما مهتم بالعبور إلى الحافة ..

ما هو الرابط ؟

يجب أن أجرى بعض الاتصالات ..

* * *

وكان (ماندريك) جالسًا فى مكتبه يطالع بعض الأوراق عندما رفع رأسه ليرانى ..

ابتسم ابتسامة خافتة ودعانى إلى الجلوس ..

كان المكتب أنيقًا فى بساطة ، وهناك جهاز كاسيت صغير يذيع موسيقا كلاسية حالمة .. رائحة التبغ تفعم الجو توشك على إزهاق روحك .. على الجدران لوحات بسيطة ذات ذوق عال ، لكن خلفه على الجدار صورة عليها ستار أخضر .. كل حياة هذا الرجل ستائر خضر .. لكن لماذا يحرص إنسان على تعليق لوحة لا يريد أن يراها ؟ يذكرنى الأمر بصورة (دوريان جراى) التى كان يغطيها كى لا يرى آثامه منطبعة على ملامحها ..

لاحظ نظراتى إلى اللوحة ، فقال باسمًا :

- « هذه صورة أمى .. منذ وفاتها لم أستطع عمل سلام مع نفسى ، أو عقد معاهدة مع ذكراها . لكننى أنتظر هذه اللحظة ، وهذا هو السبب فى أننى علقتها . يومًا ما سوف أزيح الستار وأنظر فى عينيها وأقول : وداعًا يا أماه ! »

أمام نظراتى غير الفاهمة حكى لى قصته مع أمه .. ليست القصة المفصلة التى سمعتها أنت منذ قليل لكنه حكى ملخصًا

حذف منه أهم الأجزاء .. أى أن القصة لم تعد R وإنما صارت PG-13 .. لم يحك مكالمتها الأخيرة وهى تموت وكيف تجاهلها هو .. لم يحك العقدة التى طاردته ولا كيف صار فى أمس الحاجة إلى أن يسمع أمه تسامحه .. لكنى قدرت أن هذه المرأة فى الصورة أحدثت فى حياته أثرًا لا يمكن وصفه ..

قال لى ، وهو يصب لنفسه شيئًا فى كأس صغيرة :

ـ « ربما لهذا أريد أن أفهم . أن أقترب أكثر .. »

سألته بصراحة :

ـ « هل أنت متدين يا د. (ماتدريك) ؟ »

ـ « ليس كما تفهم أنت التدين .. أنا أؤمن بعالم آخر وحياة بعد الموت . فيما عدا هذا لا أدرى .. »

ثم نظر لى طويلاً ، وقال :

ـ « لماذا لم تبلغ الإدارة ؟ »

ـ « لأننى متورط .. ظننت الأمر واضحًا .. »

ـ « فهمى للبشر هو أن هذا ليس سببًا كافيًا بالنسبة لك.. »

قلت ضاحكًا :

- « بالعكس .. أنا راغب فعلاً فى أن أكـون معك فى الجلسة القادمة .. إنه الفضول البشرى .. »

- « هذا مثير بحق .. »

أضفت ، وأنا أنهض :

- « ليس هذا فحسب .. ما أريده هو أن أكون أنا موضوع التجربة القادمة ! »

* * *

ـ 15 ـ

مساء الخميس اتجهت إلى البناية إياها فى (ديربان) ..

اجتاز مدخل الحديقة بينما السيارة اللاندروفر التى أرسلها لى (ماندريك) تدور عائدة .. إن (ماندريك) يحرص على ألا يركب معى قدر الإمكان كى لا يربط أحد بيننا ..

أصعد إلى الشقة المعنية ، فأجد فى الداخل الهندى والبريطانى .. لم يأت الآخرون بعد .. جلست على مقعد وبعد دقائق جاءت الصحفية (مارى) حاملة حقيبة جلدية كبيرة ، فحييتها :

ـ « كيف حالك ؟ »

قالت ضاحكة ، وهى تتخذ مقعدًا :

ـ « لا أدرى .. كنت فى عالم آخر وقتها .. قيل لى إن قلبى كان عنيدًا . هذا يحدث كثيرًا جدًا .. لكنى للأسف لم أر شيئًا .. كل هذا الجهد كان من دون طائل .. »

ـ « حقًا ؟ ظلام دامس ولا شىء سواه ؟ »

تحسست ظهرها ، وقالت :

ـ « نعم .. للأسف .. وأنت تعرف الباقى .. »

قال الهندى حارس المصرف الذى عرفت أن اسمه (أكبر موندهارات):

- «أنا مررت بحالة من عناد القلب هذه لكنى رأيت كل شيء .. اقتربت جدًا من الحقيقة وفهمت ..»

- «فهمت أى شيء ؟»

كان يتحدث بتلك الطريقة الهندية التى تضخم حرف الراء، وتلك الهالات السود تحت عينيه تدل بما لا يقبل الشك على هنديته .. قال وهو يحك شاربه:

- «رأيت (شيفا) و(فشنو) .. كانوا ينتظروننى . رأيت (كالى) المقدسة .. كانوا جميعًا ينتظروننى وهم يرقصون ابتهاجًا بقدومى .. كل الآلهة كانت هناك ..»

- «أنت رأيت (شيفا) شخصيًا ؟!»

- «نعم ..»

- «هذا ليس سهلاً ..»

- «هذا شرف عظيم .. لا يناله إلا القليل ..»

هكذا رحت أحدق فى الأرض كى لا يرى تعبيرات وجهى .. الهندوسى يرى (شيفا) و(كالى)، بينما البوذى يرى بوذا ..

لو كانت تجربة الدنو من الموت حقيقية فمعنى هذا أن هؤلاء على حق .. إذن هذا دليل آخر على أن ما يراه المرء ليس سوى بقايا من عقله الباطن .. كل واحد يرى مفردات دينه الخاص ويعتقد أنه وصل العالم الآخر ..

تجربة الدنو من الموت ليست سوى ممارسة أخرى للأحلام، وعلى الأرجح يمكن أن تفسر بالقواعد الفرويدية العادية ..

بعد دقائق جاء الباقون وجاء (ماندريك)..

قال لنا، وهو يقف بقامته الفارعة بين المقاعد :

ـ « يسرنا أن يعود لنا د. عبد العظيم بعد ما تبلبل فكره بعض الوقت .. وهو موافق على أن يجرى التجربة التالية .. »

ثم أشار لى إشارة مهذبة راقية كى أتجه إلى ما وراء الستار الأخضر ..

هكذا نزعت قميصى واتجهت مرتبكًا إلى سرير الكشف فجلست عليه ..

ظهر د. (ستيوارت) البريطانى باسمًا، وطلب منى أن أكشف ذراعى .. هنا أخرجت محقنًا من جيبى ومددت يدى إلى زجاجة بنتوثال الصوديوم الموضوعة جوار سرير الكشف، وقلت :

- « سوف أعد أنا لكم حقنة التخدير .. »

- « لا داعى لأن تتعب نفسك .. نحن سنقوم بكل شىء .. »

- « قلت إننى سأقوم بإعدادها .. هذه ليست مشكلة .. »

- « ولا هى مشكلة بالنسبة لنا .. »

- « أنا مصرٌ .. »

نظر لى فى حيرة ثم التفت إلى د. (ماندريك) الذى كان خارج الستار مع الآخرين ..

- « د. (ماندريك) .. هلا جئت من فضلك ؟ »

جاء (ماندريك) ليجدنى جالسًا على الفراش ممسكًا بالمحقن المليء بالسائل .. قال لى فى حيرة :

- « ما المشكلة ؟ »

- « المشكلة أننى مصرٌ على أن أعد البنتوثال لنفسى .. لن أترك أحدًا يحقننى بشىء ما لم أعرف ما تحتويه الحقنة .. من المفهوم أننى أعرف أكثر مما يجب بالنسبة لك .. »

شاعت فى وجهه ضحكة دافئة موحية بالثقة فى النفس ، وقال :

ـ « د. (عبد العظيم) .. أنت على وشك أن تتلقى صدمة كهربية وعلى وشك أن يتوقف قلبك .. لو لم تثق بنا حتى هذا الحد فمتى تثق ؟ لو أردنا الخلاص منك فأمامنا ألف فرصة ! »

ـ « آسف .. إما هذه الحقنة أو لا .. »

هنا جاء صوت من الخلف يقول بلكنة ألمانية واضحة :

ـ « لماذا لا تريحه ؟ ليس ما يطلبه عسيراً .. »

هز الرجل رأسه فى عدم اقتناع ، وثبت لى القناة الوريدية ، ثم أمرنى بأن أرقد على ظهرى وأتنفس بعمق .. فى الوقت الذى التف فيه الجميع من حولى فى فضول كالعادة ..

ـ « الآن يا دكتور .. أريدك أن تعد من واحد إلى عشرة .. »

واحد ..

اثنان ..

ثلاثة ..

أربـ ..

* * *

- 16 -

هأنذا أبدأ الرحلة ..

من جديد أغمض عينى فيسود الظلام .

أنا ساحر صغير . فليأت الظلام .. يتلاشى الواقفون من حولى ..

أشعر بخفة غير مسبوقة .. صحيح أن الظلام دامس لكنى أرى النور المعتاد فى نهاية النفق ..

هذه المرة أعرف أنه ليس نورًا بالضبط . إنه المصباح يتوهج فيخترق جفنى المغمضين ..

أرى شعيرات الدم داخل الجفنين . أحسها ..

السائل البارد يتسرب فى عروقى ..

حتى هذا أشعر به ..

ربما هى الحساسية المفرطة ، وربما هى الهستيريا ..

اعتدت أن أعتبر النساء اللاتى يتحدثن عن إحساسهن بأمعائهن هستيريات .. من العلامات الأولى لسرطان الشرج أن يدرك المريض أن عنده شرجًا .. هكذا علمونا ..

الدكتورة (صافيناز) أستاذ الطب الشرعى تتكلم فى نقطة ما من الزمكان (الزمكان = الزمان والمكان) .. تنظر لنا نظرتها الحازمة وشعرها الأشيب يتألق فى ضوء النيون بقاعة الدرس .. تقول :

ـ « أكثر الوفيات والإصابات فى حوادث السيارات تحدث لدى ذلك التعس الذى يجلس جوار السائق .. أكثر الأماكن أمنًا فى السيارة هو الجالس خلف السائق .. »

صوت أزيز يتعالى لكنه ليس كريهًا .. يدغدغ الأذن حقًا فتطلب المزيد منه .. من أين يأتى ؟

أنا أقترب من هذا النور الساطع ..

بعد لحظات أعبره ..

بعد لحظات لن تكون هناك أسرار ..

سوف أعرف كل شىء ..

Plus vite .. Plus vite ..

من البطىء إلى السريع ..

لارجيتو ..

اداجيو ..

أندانتى ..

اليجريتو ..

اليجرو ..

برستو ..

ثم شعرت بالقرص على صدرى ، وسمعت الصوت يهتف :

- « إخلاء ! »

وتلقيت الضربة القوية التى توقعتها بين لوحى الكتف فانتفضت ..

صرخت !

* * *

- 17 -

أمام أنظار الجميع نهضت صارخًا :

- « آى ! »

ثم وثبتُ من على سرير الكشف .. الحقيقة أننى استرخيت لدرجة أننى أوشكت على أن أنام وأحلم ، لكن الضربة أعادتنى إلى صوابى ..

انحنيت على سرير الكشف وبحثت عن الشىء الذى ضربنى .. ها هو ذا ! هناك رفاص مثبت تحت الظهر وعندما يتحرك يقفز جزء من حشية السرير لأعلى ليضرب الراقد على الفراش بين لوحى كتفيه .. ضربة قوية فعلاً..

عندما اتصلت بـ (مارى) أطمئن على صحتها بعد تلك التجربة ، قالت إنها بخير فيما عدا تلك الكدمة فى ظهرها ..

سألتنى عما حدث لها عندما فقدت الرشد .. هل هناك من لكمها على ظهرها ؟

طبعًا لا ..

هكذا طلبت لقاءها فى وحدة سافارى وفحصت ظهرها لأجد ألعن كدمة حديثة يمكن تخيلها .. كدمة على شكل قرص مستدير هنالك بين لوحى الكتف بالضبط ..

*

لم أفهم سبب ذلك ولا هي فهمت ..

اتصلت بالألماني (شتاينبرج) وسألته عما إذا كانت هناك كدمة في ظهره ، فقال إنها تحدث في كل مرة وإنه لا يرى لها أهمية ما .. ربما هي من ضروريات تجربة الاقتراب من الموت ..

لم يكن عندي إلا تفسير واحد .. جهاز نزع الاستقطاب وهمي ولا يصدر أية كهرباء .. فقط يصدر صوتا .. يجب أن ينتفض الجسد .. لذا هناك زنبرك في سرير الكشف يحرك ذلك الجزء الذي يجعل الجسد ينتفض مع الصوت .. هكذا تشعر أنك ترى صدمة كهربية تخترق جسد المريض ..

هكذا اتفقت مع ماري على هذا السيناريو ..

كنت أريد أن أرى ما يحدث بالضبط .. أفهم ..

استعددت بذلك المحقن .. عندما غادر (ستيوارت) الغرفة ليبلغ (ماندريك) قمت بملء المحقن بمحلول الملح .. لا شيء سواه .. هكذا عرفت أنني سأبقى متيقظًا أثناء التجربة .. وفي الوقت ذاته نظرت خلف المرقاب فتأكدت من أنني على حق .. لا يوجد خطر على حياتي بتاتًا .. هم يعتقدون أنني تحت تأثير البنتوثال بينما أنا لست تحت تأثير أي شيء على الإطلاق ..

الآن تلقيت الضربـة الخادعة التى جعلت الجميع يعتقد أننى تلقيت صدمة كهربية ..

هكذا نهضت لأكشف الحقيقة ..

قلت للواقفين المندهشين وأنا أشير إلى القرص الزنـبركى المثبت فى سرير الكشف :

ـ « هذا هو الدليل الأول .. الجسد ينتفض ليس بسبب الكهرباء ولكن لأنه يتلقى ضربة قوية بين لوحى الكتف .. »

ثم انحنيت لأكشـف المفرش الذى يغطى أسفل المنضدة التى عليها وضع المرقاب ..

ـ « الدليل الثانى ... »

سألنى الألمانى (شتاينبرج) فى دهشة :

ـ « ما هذا ؟ »

قلت ، وأنا أشير إلى جهاز الكمبيوتر الموضوع هناك :

ـ « هذا الجهاز يعرض فيلم فيديو يرسم ضربات قلب زائفة على شاشة المرقاب .. كل شىء مرسوم سلفًا .. كيف ينبض القلب وكيف يتوقف ثم يعود للنبض .. فقط يبرمج الطبيبان حركاتهما على هذا الفيلم .. قبل أن تستحيل الضربات على



الشاشة خطًا مسطحًا يضعان الأقطاب الزائفة ويصدران صيحة الإخلاء .. ثم يدوى صوت (بوم) .. وفى اللحظة ذاتها يثب الرفاص ليقفز الجسد لأعلى .. كل شىء مبرمج مسبقًا حتى الحالات التى يرفض فيها القلب الاستجابة .. فقط هو حقن مارى فى قلبها بشىء ما كى تزداد الخدعة إحكامًا ! »

ثم نظرت إلى د. (ماندريك) الذى وقف صامتا كأن الكلام غير موجه له ، وقلت :

ـ « لهذا منعنى من المشاركة فى إنعاش (مارى) . كانت تكفى لمسة واحدة منى لمعصمها كى أدرك أن القلب ينبض وليس متوقفًا على الإطلاق ! »

ثم أشرت إلى جهاز نازع الاستقطاب :

ـ « الدليل الثالث سوف نتأكد منه بسهولة .. هذا الجهاز لايعمل على الإطلاق.. »

هنا صاح الهندى (أكبر) فى عصبية :

ـ « وما جدوى هذا ؟ أى شىء يجنيه من الخداع ؟ »

نظرت إلى (ماندريك) الذى وقف فى صمت ينظر لنا بدوره ، وقلت :

ـ « هذا هو السؤال .. رهانى هو أن هذا الطبيب لا يقوم بإيقاف القلوب على الإطلاق ، وإنما هو يحقن المرضى بعقار DMT قبل بدء التجربة ليضعهم فى حالة من الهلوسة .. فترة قصيرة جدًا يعرفها هو ويعرف متى يفيق المريض منها ، وهو ما تحاشيته كما رأيتم .. أما لماذا لا يعلن ذلك صراحة فأمر أتركه له ! »

* * *

- 18 -

الآن يحيط الجميع بـ (ماتدريك) ..

لا أحد يحب أن يُخدع .. لا أحد يحب أن يكون أحمق .. هكذا بدا الغضب واضحًا فى العيون ، أما أجمل ما فى الأمر فهو أن (ستيوارت) البريطانى كان يقف مع الغاضبين .. أنت تعرف كما أعرف أنه لا يمكن إلا أن يكون متواطئًا فى هذه اللعبة ..

كان (ماتدريك) يتراجع بظهره لكنه لم يخرج يديه من جيبيه .. يتراجع وهو يقول فى ثقة :

- « هذا خبال ! هل يمكن أن يدعى إنسان أنه يوقف القلوب بينما هو لا يوقفها ؟ يتظاهر بجريمة بينما هو لم يرتكبها ؟ والأدهى أنكم غاضبون لأن قلوبكم لم تتوقف ! »

قال (جيرار) الفرنسى وهو يكور قبضته :

- « نحن غاضبون لأن هناك من سخر منا .. سخر من جزء عزيز من ذكرياتنا .. لقد جعلتنا حمقى .. »

وقال الألمانى :

- « كل هذه التمثيلية . ما هدفها بالضبط ؟ »

هنا كان (ماتدريك) قد خرج إلى القاعة التى كنا ننتظر فيها ..

لقد تغير منظرها كثيرًا ..

على الجدران كانت هناك عشرات بل مئات .. ربما آلاف .. بل ملايين .. بل بلايين .. بلايين الصور لأمه .. الرقيقة العجوز التى تسيطر على كل شىء من تفاصيل حياته ..

النظرة الثابتة الحنون . الابتسامة الواهنة التى كانت على شفتيها يوم رآته يدخن ..

أطلق سبة أمريكية جدًا ، وهتف :

ـ « من الذى ؟ »

من الذى ؟

من الذى ؟

أنا التقطت هذه الصورة بالكاميرا الرقمية التى أحملها .. تسللت لمكتب (ماتدريك) وأزحت الستار الأخضر والتقطت الصورة وطبعتها .. وصنعت منها عشرات النسخ بآلة تصوير المستندات فى سافارى ..

لقد قامت (مارى) ـ التى اتفقت معى فى الشكوك ـ بعمل متقن عندما دخلنا وراء الستار .. الجميع توارى فنهضت لتلصق الصور

على كل الجدران مستعملة أنبوبًا من اللاصق .. انتهت بسرعة فلحقت بنا بينما (ماندريك) يحاول إفاقتى ..

(ماندريك) يتراجع فى ذعر وهو يرمق الجدران ..

أمه فى كل مكان .. أمه تراقبه .. تلومه ..

« هذه صورة أمى .. منذ وفاتها لم أستطع عمل سلام مع نفسى ، أو عقد معاهدة مع ذكراها . لكنى أنتظر هذه اللحظة ، وهذا هو السبب فى أننى علقتها . يومًا ما سوف أزيح الستار وأنظر فى عينيها وأقول : وداعًا يا أماه ! »

* * *

صحت فى (ماندريك) وأنا ألبس قميصى ، شاعرًا بأن ارتداء الثياب يمنح موقفى قوة .. لا أحد يكون أقوى وهو عارى الجذع إلا بروس لى ..

- « هل تريد أن أعطيك استنتاجًا ؟ أنت جربت عملية توقف القلب هذه مع (شرايدر) .. أجريت عليه التجربة فى غرفته فكانت النتيجة أنه مات .. كانت لعبة خطرة جدًا .. هكذا جررته إلى المصعد وألقيته هناك وتركت جواره محقنًا لتوحى بأنه تعاطى جرعة زائدة من المخدر .. هكذا أفلتت من المسئولية والتشريح لم يبرهن على شىء .. بعد هذا قررت ألا تجرب هذه

التجربة الخطرة ثانية .. سوف تجرب عقار الـ DMT على هؤلاء لتحدث تأثيرًا مشابهًا للدنو من الموت .. لكنك كنت تعرف أن أحدًا لن يقبل التجربة .. لا أحد يعرض نفسه للإدمان من أجل تجربة ، دعك من أنهم قد يقبلون فكرة توقف القلب والمغامرة بالدنو من الجانب الآخر ، لكن الـ DMT يشعرهم بأن القصة كلها خدعة كيميائية .. هكذا رحت تجرى تجاربك .. هؤلاء يحسبون أنهم يمرون بتجربة دنو من الموت ، بينما أنت فى الحقيقة تحقنهم بعقار الـ DMT لترى إن كان سيقود إلى شىء .. هل سيرون أحباءهم أم لا ؟ »

صاح ، وهو لا يرفع عينيه عن صور أمه :

ـ « كان لابد أن أراها ثانية ! فشلت فى كل شىء ! حتى عقار الـ DMT اللعين لم يحدث أى تأثير معنى .. أردت أن أحقن متطوعين وأن أحقنهم بجرعات عالية .. هكذا أعرف الجرعة الصحيحة المناسبة لاستحضار من ماتوا .. »

ـ « لن يكون من ماتوا هم من تراهم وقتها هم بل هلاوس المخ .. »

ـ « أنت لا تفهم شيئًا .. إن الـ DMT ليس مجرد عقار .. إنه يجعل النفوس تشف وتتصل بالعالم الأثيرى .. »

- « كذا يقولون عن المخدرات جميعًا ! »

- « أنت لا تفهم .. (شرايدر) فى التجربة الأولى رأى دستة من أقاربه الموتى .. لكنه مات فى التجربة الثانية .. جررته إلى المصعد وتخلصت منه .. »

هنا نظرت إلى الواقفين ، وقلت :

- « أنتم جميعًا سمعتم ما قال .. سوف تشهدون بذلك .. »

لكنهم لم ينظروا لى ..

كانوا ينظرون إلى الطبيب النفسانى العملاق الذى تكوم على الأرض فى وضع جنينى وراح يبكى كطفل :

- « سامحينى .. ماما .. أرجوك أن تسامحينى ! ماما ! »

لن أصدع رأسك بالتحقيقات والضوضاء التى تلت هذه الأمسية ..

لقد عرفوا كل شىء .. وكان (ستيوارت) البريطانى يعرف القصة كلها وهو على شىء من الخبال بالمناسبة مما جعله يتحمس لهذه التجارب ..

الآن ذهب (ماندريك) إلى مكان تعرفه جيدًا .. لقد انهار توازنه النفسى الهش تمامًا مع هذه التجربة . خاصة بعد ما رأى صور أمه تلاحقه كالضمير ..

بالتفتيش فى شقته وجد رجال الشرطة كمية لا بأس بها من عقار DMT وعقار الكيتامين .. كان يجرب كل شىء ويريد الوصول للطريقة المثلى لرؤية من ماتوا . رؤية أمه بالذات ..

الآن انتهت مهمتى هنا وحان وقت العودة إلى الكاميرون ..

وداعًا يا جنوب أفريقيا . وداعًا يا ناتال ..

لن أشتاق لكم أبدًا !

كنت أتمنى أن أعرف ما سيفعلونه مع (ماتدريك) فى المصحة، وما سوف تفضى إليه محاكمة (ستيوارت) ..

لكن هذه أمور لا تعنينا هنا فى سافارى .

د. علاء عبد العظيم
من قرب ديربان

* * *

تمت بحمد الله

المصادر:

● هبة حسين : أغرب من الخيال . كتاب اليوم . الطبعة الثالثة . نوفمبر 1994 .

● عدد من مواقع الإنترنت .

● Theresa Cheung: The Element Encyclopedia of the psychic world. Harper Element. London.1 st ed. 2006

روايات مصرية للجيب

سافاري

مغامرات طبيب شاب يجاهد لكي يظل حيًا ولكي يظل طبيبا

د. أحمد خالد توفيق

NDE

أنت تقترب من النور .. من فتحة النفق .. سوف تعبر .. شعور بالنشوة يغمرك ، لكنه كذلك توتر لذيذ .. درجة معينة محببة من الخوف .. لكنك سوف تعبر .. وسوف ترى ما ينتظرك هناك .. تعرف مصدر هذا الضوء وسره .. ربما تذوب فيه للأبد .. ربما لهذا جئت إلى العالم .. ربما لهذا أنت موجود .. كي تذوب فيه فلا يصير لك وجود ..

